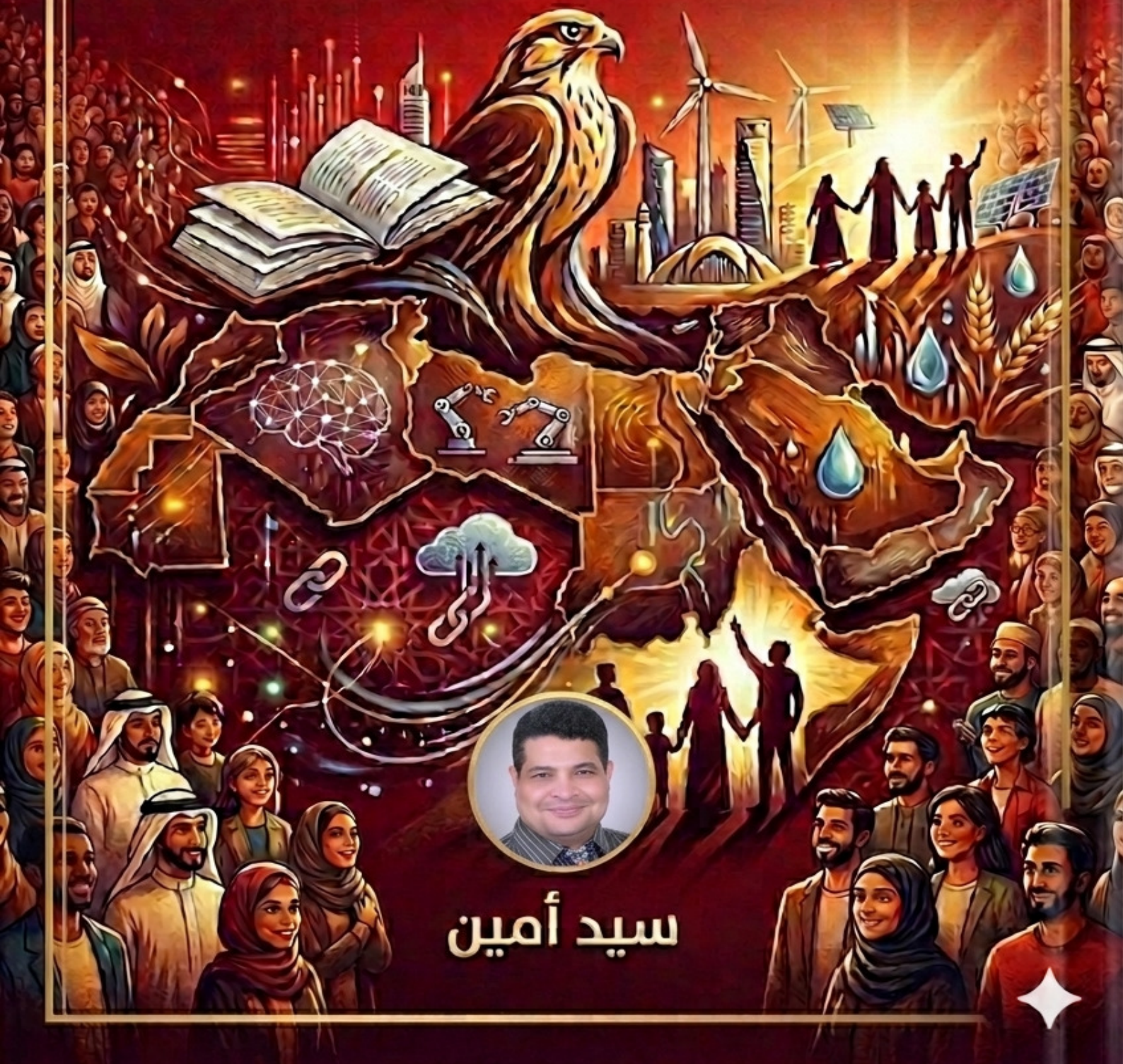


# قضايا وطنية

الهوية والتعليم والديمقراطية



سيد أمين



إهداء

من أجل وطني  
وقومي  
وقبلهم جميعا من أجل

الله

## هذا الكتاب

هذا الكتاب محاولة جادة لمناقشة العديد من القضايا المصيرية التي يتعرض لها المواطن المصري والعربي، والتي تساهم بشكل خاص في تشكيل رؤيته لنفسه والعالم من حوله.

ومن المهم قبل أن تقرأ الإشارة إلى أن التواريخ المرفقة بجوار كل نص أو مقال تتجاوز دورها لتكون نصوصاً أخرى داخل المقال تكشف الجزء الخفي منه وحالت الأمور دون سردها لأسباب متعددة، تتعلق بالكاتب والمناخ العام والمزاج الشعبي وغيرها.

**في الفصل الأول** طرحنا العديد من وجهات النظر المتنوعة حول مصر والعالم، وحاولنا أن نغطي ولو القشور من تلك القضايا المعروضة.

**وفي الفصل الثاني** ناقشنا قضية هوية مصر العربية المستقرة منذ أكثر من 1400 عام، ومدى امتزاج الهويات المتعاقبة في مصر في هوية واحدة وهي الهوية العربية.

**وفي الفصل الثالث** تعرضنا لطيف من المشكلات التي يعاني منها التعليم والدراما الفنية في مصر والوطن العربي، بوصفهما رافدين مهمين لتشكيل وعي الناس.

**وفي الفصل الرابع** عرجنا إلى ما استطعنا أن نضمنه في هذا الكتاب حول مشكلة الديمقراطية في عالمنا العربي، والتحديات التي تواجهها.

وفي النهاية؛ أقول إنني إن أجدت أجرى على الله، وإن أخطأت فسامحوني، وكل مخلوق خطأ.

الله الموفق والمستعان

الفصل الأول:

# قضايا ثقافية

## نحو تاريخ منطقي حديث لمصر

9 أكتوبر، 2014

أحياناً يقف الواحد منا حائراً وهو يفكر في المنحنيات الكبرى لتاريخنا العربي، لاسيما الحديث منه، ويصل جراء ذلك إلى نتائج مرعبة نأمل أن تكون خاطئة، خاصة أن التاريخ -كما هو معروف- يكتبه المنتصرون؛ حيث صُبع تاريخنا بنكهة صناعه وهم فيما يبدو مدلسون، فلو كانت نخبة حكمنا تنتصر دوماً لإرادتنا كشعب، ما صار حالنا هكذا.

فبريطانيا، الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، فجأة ودون سابق إنذار تخلي مستعمراتها في الشرق وخاصة في وطننا العربي على وقع أنفلونزا انقلابات تأخذ شكل ثورات هزلية (على غرار ربيعنا العربي الهزلي أيضاً الآن)، وهي الانتفاضات التي لطالما مرت بها بريطانيا طوال تاريخها الاستعماري، وسحقها باستخدام القوة المفرطة المعروفة بها. والسؤال هنا: لماذا لم تستخدم قبضتها الحديدية المعتادة لسحق تلك الثورات بضربة واحدة كما كانت تفعل من قبل؟ ولماذا ظلت تلك المستعمرات المتحررة وفيه لبريطانيا ورببيتها أمريكا وتدين لهما بالولاء حتى الآن؟

وهل لتطبيقات النموذج الثالث من نماذج مكيافيللي في استعمار الدول شأن فيما حدث ولا زلنا نتجرع كأسه المر حتى الآن؟ حينما نصح مكيافيللي أميره بأنه لو أراد غزو بلد ما وضممان دوام السيطرة عليه، فيجب بعد احتلاله تنصيب حكام يوالونه من أهل هذا البلد، يختارهم دون إرادة الأغلبية من أقليتهم بل من أخط الناس فيهم، ثم يرحل؛ حيث سيظل هؤلاء الحكام الجدد يحتمون به من شعبهم ويسلبونه ليعطوه.

ففي مصر، ماذا كان المانع من أن يقوم الجيش البريطاني -الذي يستولي على كل مقدرات البلاد وكان يتحكم في القرار السياسي للملك- من اعتقال أو قتل كل "الضباط الأحرار" البالغ عددهم قرابة المائة ضابطاً؟ وهو يدرك جيداً أن تسليحهم يكاد يكون بدائياً بالنسبة للسلاح الذي يمتلكه، وكانت كتيبة واحدة من كتائبه تكفي لإنجاز هذا الأمر. أم إن الإنجليز كانت لديهم رغبة في التخلص من هذا الملك الذي كان يتوق لانتصار الألمان في الحرب العالمية الثانية؟ لدرجة أنهم حاصروا قصره بالدبابات في نوفمبر 1942 من أجل تمكين حزب الوفد (الخاسر في الانتخابات والموالي لبريطانيا) من تشكيل الحكومة والبرلمان بالقوة، من أجل تأمين ظهرهم في مواجهة قوات القائد الألماني "روميل" بالعلمين.

أم أن أمر تشكيل تنظيم "الضباط الأحرار" جاء في إطار التجهيز للنظام الجديد الذي تعترم أمريكا (الوريث الجديد) إنشائه في مصر بعد جلاء الإنجليز منها دون طلقة نار واحدة عام 1954؟ وذلك في إطار اتفاقية أبرمت عام 1951 بين بريطانيا وأمريكا تتنازل فيها بريطانيا عن مستعمراتها القديمة لأمريكا، حيث ابتكرت الأخيرة استعماراً حديثاً يتماشى مع طبيعتها ومع روح عصر التقنية المتطورة خاصة في الاتصالات والمعلومات، يقوم على الاحتلال من

خلال التصنيع والتجهيز والتحكم الدقيق في النخب العسكرية النافذة كعوض عن الاستعمار التقليدي.

وما يعد قرينة تدعم هذا الزعم، أن مصر بعد 23 يوليو 1952 كانت تتجه سياسياً نحو أمريكا وظل الأمر كذلك حتى مطلع الستينيات، حيث توجه عبد الناصر بمصر شرقاً نحو الاتحاد السوفيتي بعد "أزمة تمويل السد العالي"، فيما قد يُفسر بأنه انقلاب حميد قاده عبد الناصر ضد الراعي الأمريكي ودفع حياته ثمناً له بعد ذلك.

ومن القرائن أيضاً، أنه في إطار وصم "السادات" بالتاريخ النضالي المشرف ليكون حاكماً لمصر (حسب اعتقادي الشخصي)، تم تلميعه عبر اتهامه بالمشاركة في قتل الورقة البريطانية المحروقة "أمين عثمان" مع أن القاتل الأصلي هو حسين توفيق، ولم يتم القبض عليه حتى قيام الثورة المزعومة، لا من الإنجليز ولا من الشرطة المصرية الموالية لهم، وظل ينتقل هنا وهناك دون خوف أو وجل. بل إن هذا الرجل "المطارد" راح يتعرف على جميلة الجميلات جيهان السادات ذات الأصول البريطانية ويتزوج بها رغم أنه من المفترض أنه هارب من الشرطة ومن الإنجليز، ورغم أنه فقير ومعادٍ للأغنياء وللإنجليز والباشاوات، ورغم أنه أصلاً متزوج ولديه أطفال، وليس بالفتى الوسيم الذي يمكن أن يكون حلماً لفتاة أرسنقراطية كجيهان السادات!

ثم حينما ينقلب عبد الناصر على الإرادة الأمريكية، يجري تصعيد السادات بشكل متسارع بين رفقاءه من الضباط الأحرار حتى يصبح نائباً للرئيس عبد الناصر. وهنا يسقط عبد الناصر ميتاً ويتولى السادات حكم مصر، وبدلاً من أن تتحرر سيناء بعد حرب 6 أكتوبر، نجده سلّم مصر كلها لإسرائيل في "كامب ديفيد"، وما تلاها وارتبط بها من التزامات حددها المفكر القومي محمد سيف الدولة في "الكتالوج الأمريكي الذي يحكم مصر"، والذي يتضمن جعل سيناء رهينة دائمة لإسرائيل، وبيع القطاع العام لضمان عدم الإنفاق على الجيش، وإنشاء نظام اقتصادي موالٍ لأمريكا وإسرائيل من خلال المعونة التجارية الأمريكية وبرنامج صناعة الجواسيس، وصناعة مناخ سياسي يشترط في لابعيه الاعتراف بكامب ديفيد، وعزل مصر من محيطها العربي!

ومن اللافت أننا نجد لجيهان السادات ومن بعدها سوزان مبارك جذور نسب بريطانية، فضلاً عما يُشاع -ولا ندري مدى صحته- بأن للرئيس عبد الناصر جدة يهودية وأنه تربى في حارة اليهود بالجمالية، وكان يسكن بجوار البيت الذي كان يسكنه شيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، وذلك قبيل سفر الأسرة للإسكندرية، والعيش في حي "باكوس" الذي عرف بتواجد الجاليات اليهودية والأجنبية فيه هناك.

والحقيقة أن المرء الغيور على جيش بلاده الوطني قد يجد نفسه مستاءً من أن هذا الجيش لم يحقق أي انتصار حقيقي يذكر في كل معاركه؛ ففي حرب فلسطين عام 1948 تردد أن جنودنا البواسل أنفسهم يحملون أسلحة تنفجر فيهم عند إطلاقها وهي معلومة كذبها الحكام الجدد بعد

يوليو رغم أنهم أنفسهم من أطلقوها، وكان قادة الجيش في مصر، الأردن، والعراق متواطئين من أجل تحقيق النكبة وقيام دولة إسرائيل وليس العكس.

وفي العدوان الثلاثي عام 1956 لم يجد المصريون في مدن خط القناة لجيش بلادهم أي وجود يذكر، حيث تُركوا نهياً للعدوان، ولولا المقاومة الشعبية التي شكلوها هناك والموقف الروسي لسُحِقوا سحقاً.

وفي 1967 انتكس جيش مصر نكسة ما كانت تليق بتاريخها، خاصة أنها تأتي من جيش دويلة عمرها 19 عاماً فقط.

وفي أكتوبر 1973 حقق المصريون نصراً تاريخياً -تاريخياً- بسبب كثرة الهزائم التي تعرضوا لها قبلها- سرعان ما سُلب منهم قبيل انتهاء شهر أكتوبر ذاته، وبعد أن سُلب هذا النصر حدثت عملية تسليم مصر لإسرائيل في كامب ديفيد.

وهزيمة مصر في نهاية حرب أكتوبر هو ما قاله حرفياً المشير سعد الدين الشاذلي بطل هذه الحرب وغيره الكثيرون، وهو ما قاله من الناحية الأخرى رئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق بيني غانتس الذي صرح قائلاً بشكل قاطع:

"إن حرب تشرين بدأت كوسيلة دفاعٍ لصد العدو، وتحولت فيما بعد إلى انتصار كبير للجند".

وهو بالتالي ما يلقي بظلال من الشك حول هذه الحرب ودور السادات فيها وفي الانتكاسات السياسية الرهيبة التي حدثت بعدها، وكذلك يطرح شكاً كثيفاً حول السبب الذي جعل قادة الجيش الجدد يتخلصون من السادات، وعمّا إذا كان هذا الفعل يأتي في إطار إنقاذ البلاد من التوغل في اتفاقية الاستسلام، أم الدفع نحو مزيد من التوغل في تطبيق هذه الاتفاقية وتثبيت المشهد على صورة كامب ديفيد لمدة ثلاثين عاماً تالية؟

وفي الحقيقة التساؤلات لا تقتصر حول أركان النظام السياسي بعد 1952 فقط، ولكن تمتد أيضاً لتشمل كل قادة تاريخنا المصري في مطلع القرن العشرين وما قبله؛ بدءاً من أحمد عرابي الذي اعتبره شخصياً الرمز المصري الوحيد الذي مجده التاريخ بما يستحق، وإن كانت ثورته "الثورة العرابية" خرجت في الأصل لمطالب فئوية خاصة بالجنود المصريين في الجيش (وكانوا آنذاك قلة تمثل الطبقات الدنيا)، إلا أن عرابي استطاع أن يأخذ منصباً كبيراً بسبب كونه الجندي الوحيد الذي نجا من الموت في حرب غير مبررة أرسلهم الخديوي إليها في الحبشة، لكن تلك الغضبة تطورت لتكون ثورة للدفاع عن استقلال مصر، ثم خسرت القوى الوطنية المعركة وسقطت مصر تحت نير الاحتلال بسبب خيانة الخديوي والبدو والأجانب فضلاً عن الجهل المتفشي آنذاك بين المصريين.

فخذ مثلاً سعد زغلول باشا، تم ترسيمه بالزعامة ليقودوا من خلاله طوائف المصريين؛ فالرجل الذي فوضه الطلاب للحديث باسم مصر في طلب الاستقلال بعد الحرب العالمية الأولى (بعدما

رأوا نفوذه عند سلطة الاحتلال وتقديرهم له)، وجدناه يذهب للمفاوضات ويعود خاوي الوفاض. ولما صعد الطلاب مطالبهم بدستور جديد ينص على الاستقلال التام لمصر، وجدنا دستور 1923 الذي يعلن استقلالاً اسماً لمصر دون ترجمة ذلك على أرض الواقع، وبدلاً من تصاعد الحراك المناهض لتحقيق "الاستقلال التام أو الموت الزؤام"، وجدنا الحراك الطلابي يكتفي بمعارك تشكيل الحكومات تحت نير الاحتلال.

كما أنني لا أفهم كيف يكون الواحد منا مناضلاً بينما يكون شقيقه هو القاضي الذي لبي مطالب الاحتلال في إعدام فلاح دنشواي؟ أليس هذا الرجل تربى معه في "بيت الأمة"؟ حتى أن هذه التسمية لبيته كانت -كما وردت في عدة مصادر- شعاراً رفعه طالب تشاجر مع طلاب آخرين أثناء اجتماع طلابي أمام منزل سعد زغلول، وحينما طالبهم زغلول بالانصراف راح الفتى يتخلص من الحرج صائحاً: "هذا ليس بيتك ولكنه بيت الأمة!"، هنا التقط زغلول وأنصاره الخيط ليكرسوا الشعار لإتمام مراسم الزعامة.

وهناك أيضاً مصطفى كامل باشا ومحمد فريد باشا؛ حيث نجد كتب التاريخ تعج بإضفاء مراسم النضال عليهما دون أي مبرر لذلك، فكلاهما مع سابقهما مترفون مقربون للسلطة الحاكمة في الداخل فتكرمت عليهم بالبشوية، ومقربون للاحتلال فسافروا ليناضلوا في ضيافته، وأتيح لهم من النعيم ما لم يتح لملايين من المصريين الذين ناضلوا وعانوا وماتوا في صمت، دون أن يذكر التاريخ حرفاً واحداً عنهم.

## تداعيات الانتقال من الوفرة إلى الندرة

28 مايو، 2025

تعاني المجتمعات العربية، ومنها بالطبع المجتمع المصري، ما يشبه الصدمة الاجتماعية الحادة جراء عوامل عدة، أبرزها الانتقال المفاجئ من حالة “الوفرة” والاكتفاء، إلى واقع من الندرة والعوز بفعل أزمة اقتصادية طاحنة تفاقمت خلال السنوات الأخيرة. وتضافرت عوامل هذه الأزمة ونتائجها في تشكيل حالة عامة من الإحباط واليأس وقتل الأمل في النفوس.

ومن أبرز مظاهر هذه الأزمة: الارتفاع الحاد في الأسعار، ومعدلات التضخم، والبطالة، والفقر، والجريمة، والتشرد، والإدمان، وارتفاع نسب الطلاق، والعزوف عن الزواج، وعودة مشاهد الجوع وسوء التغذية.

يُضاف إلى ذلك تدهور سعر صرف العملة المحلية، واتساع الفجوة بين الدخل والمصروفات، وتدهور العلاقة بين الجهد والأجر.

هذه المؤشرات يمكن التحقق منها بسهولة من خلال مقارنة البيانات الرسمية أو غير الرسمية بحال البلاد قبل عشر سنوات، كما يقول المثل: “اسأل مجرب ولا تسأل طبيب”.

وقد أفضت هذه الأوضاع في المجتمع المصري إلى نوع من “الانفصام الاجتماعي”؛ إذ تسعى ملايين الأسر إلى الحفاظ على مظهر الثراء والرفاه الذي اعتادت عليه تقديراً لاعتبارات اجتماعية وثقافية، حتى لو كان ذلك على حساب صحة العائلين النفسية والجسدية.

وقد استنزفت هذه الأسر مدخراتها من الثروات السائلة وغير السائلة، مثل العقارات أو المعادن النفيسة التي كانت تمثل صمام أمان لمجاراة هذه الأوضاع. ولعل في المثيلين الشعبيين “القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود” و”خد من التل يختل” تعبيراً صادقاً عن هذا الواقع.

يمكن القول إن المصريين يعيشون اليوم لعبة “عض الأصابع”؛ إذ يخسر من يصرخ أولاً، لأن ذلك يعني انهيار وجاهته الاجتماعية، وهي وجاهة قد تمثل بالنسبة للكثيرين طوق النجاة من الانهيار النفسي. ولهذا يسعى البعض إلى التمسك بها بأي ثمن، بينما يستغل آخرون الموقف لإظهار بذخ زائف يعمق إحساس الفقراء بعوزهم.

مظاهر استهلاكية لمجتمع الندرة

أنتجت الندرة الاقتصادية أنماطاً جديدة من العلاقات الاجتماعية أخلت بالتقاليد المجتمعية الراسخة، خاصة في مجتمع عُرف بكرمه وتواصله؛ إذ أصيبت الزيارات العائلية بالبرود، ولم تعد الدعوات لها ما كانت عليه من إلحاح وإصرار، وبدلاً من اللقاءات المباشرة في الأعياد والمناسبات، حلت محلها مكالمات هاتفية ورسائل إلكترونية باهتة.

وفي مشهد يذكر بسلوكيات فردية من مجتمعات الرفاه الغربية (مثل شراء الفاكهة بالوحدة)، بدأ المصريون يشترون البطيخ بالشريحة لا بالحبة، لكن لسبب مغاير تماماً وهو ضيق اليد. وتراجعت ثقافة اقتناء الأفضل لتحل محلها ثقافة البحث عن الأرخص، ولو كان على حساب الجودة.

وأصبحت تجارة المستعمل والخردة والتقليد رائجة في كل ما يتعلق بالسلع المعمرة والمواد الاستهلاكية، حتى اللحوم والدواجن المجمدة المجهولة المصدر.

كما تخلت العديد من الأسر عن بعض النفقات اليومية، بل وأصبحت تمارس هذا "التقشف القسري" في الخفاء خشية الوصم أو الخجل الاجتماعي.

هذا الوجه "الاستعراضي" للطبقة الوسطى يقابله انهيار تام في الطبقات الفقيرة، إذ تفتت مظاهر التفسخ الاجتماعي: بلطجة، جرائم، تجارة أعضاء بشرية، خطف أطفال وفتيات، اغتصاب، وابتزاز، وحتى استخدام الضحايا في تجارب علمية ضمن أنشطة إجرامية منظمة.

### الانحلال الأخلاقي وصعود اللاعقلانية

تعج صفحات التواصل الاجتماعي بسلوكيات غير مألوفة، من تعرّ إلى دعارة إلى تمجيد المخدرات. ولم تعد هذه الممارسات حالات فردية، بل تحولت إلى ظواهر يومية تتجاوز مناطق شعبية بعينها وتطال المجتمع كله، ويمكن القول إن تجارة المخدرات صارت واقعاً يومياً لا يمكن إنكاره.

ومع غموض المستقبل، أصبح كثيرون يلجؤون إلى وسائل غيبية مثل التنجيم، والتاروت، وقراءة الفنجان، والزار، وأعمال السحر، وطقوس الشعوذة، والتحاسد، بل وصل الحال ببعض إلى تقديم قرابين للشيطان في مشهد يشي بتراجع العقلانية وسيطرة الخوف.

### الفضح والتشهير كأداة ضبط اجتماعي

في المجتمعات التقليدية، كان الفضح عقوبة رادعة للمجاهرين بالمعصية أو الخارجين على العقد الاجتماعي، وكان ذلك -رغم قسوته- دليلاً على تماسك المجتمع. ورغم أن الإسلام حذر من الغيبة والنميمة، فقد أقر الفضح في سياقات إصلاحية بحتة. لكن المشهد اليوم تغير؛ فقد صار بعض الناس يتباهون بالنصب والاحتيال، ويجاهرون بالبلطجة والرذيلة، بينما عادت مظاهر الثأر بعد أن اندثرت عقوداً.

وبسبب شيطنة المتدينين، وتهميش الوازع الديني وتسفيهه إعلامياً، تحولت الأزمة الاقتصادية من فرصة للإبداع والتكافل إلى بيئة خصبة للهدم والتدمير والانحلال.

**خاتمة:** ومع قسوة الواقع يبقى الأمل ممكناً، فالأزمات الكبرى تحمل في طياتها فرصاً لإعادة البناء، والانتباه إلى أخطار الترف الطويل. وربما يكون في هذا التدهور الصادم ما يذكرنا بوصية عمر بن الخطاب: "خشوشنوا، فإن النعمة لا تدوم".

## هؤلاء سبقوا شامبليون في فك رموز الهيروغليفية

28 أكتوبر ، 2022

“التاريخ يكتبه المنتصرون”، صدق رئيس وزراء بريطانيا الأسبق ونستون تشرشل حينما قالها، ولعله حينئذ كان يعرف حجم التزوير والعبث الذي مارسه هو وأمثاله المنتصرون في هذا التاريخ، وكيف أنهم نجحوا في تحويل أكاذيب بيعة إلى حقائق راسخة لا تشوبها شائبة، حتى صدقها المهزوم نفسه من فرط تكرارها.

هناك أكذوبة شهيرة من هذا النوع ترسخت في الأذهان حتى استحال تكذيبها رغم وجود العديد من الأدلة التي تدعم ذلك؛ إنها تتعلق بمن استطاع فك رموز اللغة الهيروغليفية.

### حجر رشيد

فقد اقترن اسم حجر رشيد وفك الرموز التي كانت محفورة عليه بجهود العالم الفرنسي جان فرنسوا شامبليون عام 1822م، وهو الإنجاز الذي مهد الطريق للتعرف جلياً على اللغة الهيروغليفية وحروفها، وهي معلومة لا تزال تدرس للنشء حتى الآن في المناهج المدرسية المصرية.

رغم أن العديد من العلماء المسلمين -خاصة الكيميائيين منهم أمثال جابر بن حيان، وذو النون المصري، وابن وحشية النبطي وغيرهم- كانوا قد سبقوا العالم الفرنسي إلى فك رموز تلك اللغة بأكثر من 800 سنة، وجاء محور اهتمامهم بها لاعتقادهم أنها تحوي معلومات مهمة عن الكيمياء.

وترك هؤلاء الكثير من المخطوطات والكتب، منها كتاب “شوق المستهام في معرفة رموز الأرقام”، وهو الكتاب الذي حققه الباحث جمال جمعة وترجم إلى عدة لغات، وهو متاح للقراءة والاقتناء عبر المنصات الرقمية؛ حيث تناول فيه أبو بكر بن وحشية النبطي (الكيميائي واللغوي العراقي الذائع الصيت في القرن العاشر الميلادي) 89 لغة بالشرح والتفصيل وجاءت من ضمنها اللغة الهيروغليفية.

وكان مستشرق نمساوي يدعى جوزيف هامر قد قام بترجمة هذا الكتاب عام 1806م تحت عنوان “الأبجدية القديمة والشخصيات الهيروغليفية”، ونشره في لندن قبل إعلان شامبليون اكتشافه بعام.

كما سبقه الكيميائي جابر بن حيان في القرن السابع الميلادي بنشره الكثير من معاني رموز وحروف تلك اللغة ضمن كتابه "الحاصل في علم الميزان"، ثم كتاب عبد السلام المقدسي "حل الرموز ومفاتيح الكنوز" في القرن السادس الهجري، وكذلك تأكيد "أيوب بن مسلمة" (المقرب من الخليفة المأمون) في مخطوطة له أنه تمكن من قراءة النقوش المصرية القديمة.

وقد تلاه "ثوبان بن إبراهيم" أو "ذو النون المصري"، وهو عالم مصري من مركز أحميم بمحافظة سوهاج كان علماً بين علماء زمانه في الكيمياء واللغة خاصة الهيروغليفية، وله كتاب باسم "حل الرموز وبرء الأرقام في كشف أصول اللغات والأقلام" يكشف فيه تفاصيل دفائن تلك اللغة.

وضمن الكيميائي العراقي أبو القاسم العراقي عام 1506م كتابه "الأقاليم السبعة" جدولاً لترجمات الحروف البرباوية (أي الهيروغليفية)، وكذلك ابن الدريهم في كتابه "مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز"، وابن إسحاق الكندي في كتابه "رسالة الكندي في استخراج المعنى". وجل هذه الكتب والمخطوطات محققة ويمكن الاطلاع عليها في المكتبات التاريخية العراقية والسورية، فضلاً عن المكتبات الإلكترونية.

#### أسباب منطقية

ولا يقتصر الأمر على الوثائق والكتب، بل هناك أسباب أخرى أكثر منطقية تجعلنا نصدق أن العلماء العرب والمصريين كانوا أسبق في حل طلاسم الهيروغليفية؛ منها أن العرب حينما فتحوا مصر كانت هذه اللغة لا تزال حية في الألسنة وإن شوهتها لغات الرومان واليونان وغيرهم ممن احتلوا مصر عدة قرون، لكنها لم تنقرض. كما أن مصر لم تكن طوال العصور السحيقة بمعزل عن جيرانها العرب، فالتواصل بينهم كان مستمراً سواء لأغراض التجارة أو تحصيل العلوم أو حتى الحرب والاستعدادات العسكرية، وبالتالي فلا بد من أنهم كانوا قد تبادلوا فهم اللغتين العربية والهيروغليفية وتحديثوا بها.

كما أن حقائق التاريخ تؤكد استقرار القبائل العربية الكنعانية في دلتا مصر مدة طويلة في العصور الفرعونية، ويعتقد بعض المؤرخين أن مصطلح "الهكسوس" هو في الأصل الاسم الذي أطلقه المصريون على الكنعانيين عندما حكموا مصر. بل إن آثار تلك اللغة باقية إلى اليوم؛ فالطقوس والصلوات في الكنائس المصرية لا يزال بعضها حتى الآن يستخدم لغات قديمة كالهيروغليفية والسريانية والآرامية والرومانية، فضلاً عن أن هناك مفردات هيروغليفية قليلة لا تزال متداولة في الشارع المصري مثل: (كاني ومانى)، (السح الدح امبو)، وغيرها.

والأهم أن إنكار ذلك سيعني حرفياً أنه لم يبق من سلالة الفراعنة أو المصريين القدماء الذين يطلق عليهم "الأقباط" أحد في مصر، لا مسلم ولا مسيحي، وأن سكان مصر هم مزيج من العرب والرومان واليونان والبطالمة والأحباش والنوبة وغيرهم إلا المصريين، وهو في الواقع قول غير منطقي إطلاقاً. فالمنطقي أن المصريين القدماء كانوا موجودين في المجتمع بعد

الإسلام ودخل جلهم في الدين الجديد، وامتزجوا باللغة العربية وتنازلوا مع القبائل العربية فصاروا عرباً.

كل ذلك يعني أننا لم نكن بحاجة إطلاقاً إلى أن يعبر الفرنسي جاك شامبليون البحار لكي يعلمنا حقيقة الحروف الهيروغليفية. المؤسف أن حجر رشيد نفسه الذي تدور حوله كل تلك المعركة التاريخية استولت عليه بريطانيا وحبسته في المتحف البريطاني بلندن، ولم تُبدل أي جهود حقيقية لاستعادته. زوّروا التاريخ وسرقوا الحجر.

## عن المثقف والمثقفين

15 نوفمبر 2009

منذ زمن ليس ببعيد كنا نعرف المثقف بأنه هو الشخص الذي يعرف بعض الشيء عن كل شيء.. أما الآن فتعريف المثقف بدا شاحباً تعثر به أمراض مزمنة.. فتارة نجدنا نعتبر أنه المواطن الخارج عن السرب.. وتارة نعتبره ذلك السليط الذي ينزع كل حياء ويستبيح كل مقدس.. وأخرى نعتبره أنه ذلك الداعي إلى التسليم والانتهازية والتنازل عن كل غال ونفيس بحجة الاحتكام إلى العقل والانطلاق إلى المستقبل.. أو ذلك المتبلد الذي يرى أن معاناة الناس ضرورة لاستنباط معنى الراحة والدعة.

ومثقف هذه الأيام هو ذلك الذي ينجح بكل بساطة في استفزاز مشاعر الناس والحصول على أكبر قدر من كراهيتهم وإن شئت احتقارهم.

ناهيك عن مثقفي "التيك أو اي" الذين نجدهم بكل انتهازية يحرمون لهذا ما شرعوه لذاك، ويباركون لزيد ما لعنوه في علي.

ولعلي لا أكون مغالياً لو قلت إن هناك فجوة عميقة بين اهتمامات المثقف واهتمامات الناس.. والمدهش أن تلك الفجوة ليست ناشئة من زيادة في الوعي لدى المثقف أو نقصه لدى العامة.. ولكن لأن كلاً منهما لا يفكر في الآخر وكلاهما يعمل في جزر منعزلة.

ويصبح فرضاً على المثقف ألا يطلب من البسطاء الالتفاف حوله.. ولكن عليه هو أن يبحث عن قضاياهم ومشكلاتهم ويسعى لعرضها بصدق وأمانة على الرأي العام.. وحينما ينجح في ذلك عليه أن يكون واثقاً بأن فطرة هؤلاء البسطاء ستجعلهم يلتفتون حوله.

والحقيقة المرة أن المجتمع فسد حينما فسد مثقفوه.. حينما شغلهم أمر العولمة عن هم البطون الجائعة والأجساد العارية والنفوس المحطمة.. حينما تحدثوا عن لغة "النت" في دولة أقل من نصف سكانها لا يجيد القراءة والكتابة، ويعيش الملايين من سكانها في جحور العشوائيات، ويتخرج الآلاف سنوياً من مدارسها وجامعاتها لتستقبلهم المقاهي والغرز على الرحب والسعة.

فسد المثقفون حينما أهملوا الاهتمام بأسمى المهن وأقدمها: الفلاحة والزراعة واستنباط الحياة والطعام من بطن الأرض.

فسد المثقفون حينما صمتوا على مذبحه العمال وتخريب الصناعة وتعجيز الإنتاج.. وحينما اعتبروا العامل والزارع والصانع مهناً لا تستحق أن تأخذ منهم بريق الكاميرا فنصفوها كمهن دنيا.

فسد المثقفون حينما تصارعوا على فتات يلقيه لهم ذوو النفوذ في الداخل أو الخارج.. نظير شراء ضمائرهم.. فصاروا سوطاً ثالثاً يُضاف لسوطي الداخل والخارج يلهبون به ظهور هذا الشعب المسكين.

فسد المثقفون حينما سكنوا في أبراجهم العاجية وظلوا ينظرون إلى الناس باعتبارهم ابتلاء.. وحينما استوعبتهم مارينا ومراقيا وكل امتداد الساحل الشمالي بينما حرقت الشمس والفقير والفساد رؤوس الناس.

فسد المثقفون حينما افتعلوا معارك وهمية خارج ميدان المعركة الحقيقية لتصفية حسابات هنا أو هناك.

ورغم قتامة الصورة إلا أن هناك لا شك العديد من المثقفين المحدثين الذين امتازوا برواهم المتميز الصادقة.. مضافاً إليهم نخبة رائعة من القدامى الذين شكلوا أساس البناء والمرجعية.

## الثقافة اليهودية عند المصريين

23 سبتمبر ، 2016

وجدت الموروثات الثقافية الدخيلة مكاناً رحباً في الثقافة الشعبية المصرية، لتبقى دليلاً متداولاً يعبر تعبيراً صارخاً عن حجم التدخلات الدولية المستمرة عبر التاريخ في ثقافة هذا الشعب، لدرجة أنها تمكنت من التوغل في كلماته وتعبيراته الاعتيادية، بل وامتدت حتى وصلت إلى طقوسه الدينية لدرجة قد تثير الدهشة.

ولا جديد في القول إن الثقافة المصرية الحالية هي مزيج تطور تاريخي لثقافات عدة؛ منها المصرية الغابرة، والعبرانية، والفارسية، والتركية، والأمازيغية، والنوبية، والحبشية، واليونانية، الذين ذابوا جميعاً في ثقافة أنضج وأبلغ هي الثقافة العربية، الأمر الذي ساهم في إعطاء عربية مصر الدارجة تميزها.

ربما حدثت تلك التدخلات بحكم الموقع الجغرافي، وربما بحكم مسالمة سكان مصر القدماء أو حتى عجزهم عن مقاومة الغزاة الذين تناوبوا على احتلالها على مدى طويل جداً يقدر بنحو الألف ونصف الألف سنة، وهو ما ينسف عملياً مقولة "خير أجناد الأرض".

يبدو التداخل الثقافي التركي واضحاً في عادات وألفاظ كثيرة، منها النسبة بحرف "جي" مثل: (مكوجي، عربجي، بلطجي)، كما أن التداخل الفارسي جاء في كلمات كثيرة منها: (الشخت، البخت، تختة، ممنون، ميمون، يلا).

وما يعيننا هنا الإشارة إلى أن تماس الموروث الثقافي اليهودي مع جوانب الغيبيات والميتافيزيقا في عقل الإنسان عامة، يجعله يجد رواجاً عند المصريين دون أن يعرفوا مصدره ودون أن يدركوا أنه يضرب في صميم العقيدة الإسلامية.

### طقوس يهودية في المظهر المصري

أثرت العبرانية والعقيدة اليهودية تأثيراً كبيراً في الثقافة الشعبية المصرية، وجعلت كثيراً من المصريين -في غفلة من العلم بالدين- يمزجون بين طقوس العقيدتين الإسلامية واليهودية. ومن هذا مثلاً، درج كثير من المصريين لاسيما في الأرياف، أنهم حينما يذبحون "الأضاحي" يقومون بغمس أكفهم في دماؤها ثم يضربون بها على أبواب منازلهم وحوانيتهم طلباً للرزق وجلباً للبركة، ولا يدرون أنهم بذلك يفعلون ما فعله اليهود في فجر يوم الخروج من مصر! فبحسب ما جاء في "سفر الخروج" في التوراة، أن موسى طلب من اليهود ذبح القرابين ليلاً والاستيقاظ فجراً للهروب، فطلب منهم أن يغمسوا أيديهم بدماء قرابينهم ويعلموا بها بيوتهم لتشملهم البركة ويسهل التعرف عليهم.

ويقول المصريون لمن لا يعتبر: "حط في عينك حصوة ملح"، وهو قول يعود بحسب المعتقد اليهودي في سفر "التثنية" إلى زوجة النبي لوط التي عصت الأمر ونظرت خلفها أثناء تدمير القرية فتحولت إلى "عمود أو حصوة ملح". ولا يفوتنا الإشارة إلى أن المصريين كانوا يتندرون قديماً بقولهم عن "اليهوه الخفي" وهي اللفظة التي تدرجت في العامية لتتطوق "الله الخفي"، وكذلك عبارة "يا خلق يهوه" التي يقولها البعض تعجباً ومعناها "يا خلق الله".

وكانت المصريات في زمن ليس ببعيد تتوشم بوشم أزرق في أيديهن أو في الجبين، وهي ممارسة تعود لنصائح البركة في العهد القديم.

ومنذ سنوات راحت ناشطات إسرائيلية وفلسطينية تتخذن من "الخرزة الزرقاء" رمزاً للتقاليد المشتركة، رغم أن الخرزة الزرقاء واللون الأزرق (ويسمونه الأسمانج) هو من الألوان المقدسة عند اليهود دون غيرهم لدرجة جعلها لوناً رئيسياً في علمهم؛ فاللون الأزرق يرمز للعظمة والسعادة طبقاً لما ذكر في سفر الخروج وإصحاح أستير. المهم أن "الخرزة الزرقاء" و"العين الزرقاء" هي طقوس عقائد يهودية بحتة وقع في حبالها المصريون.

#### كلمات عبرية دارجة

يحفل اللسان المصري بكلمات من كل الألسنة ، طرزها جميعها بشكل فريد في لغته العربية، ولم يجعل سلطاناً لأي لسان آخر عليها ، ما دل على قدرة تلك اللغة البارعة في تعريب الكلمات الدخيلة وامتصاصها، ودل أيضاً على أن "عروبة المصري" ليست هوية دخيلة عليه ولكنها أصلاً يصهر كل ما عداها فيها.

ومن الكلمات العبرية التي يتداولها بعض المصريين كلمات مثل "سجرة" أي الشجرة ، و"شيمش" أي شمس ، "أنى" أي أنا ، "بعلي" أي زوجي ، "بت" أي بنت ، شاف أي شاهد.

## غرائب بوتقة الصهر

11 مارس ، 2016

من غير المحبب للمرء أن يتحدث عن بلاده المتخلفة فيصفها بحقيقتها، وود لو تبدلت بينها وبين أكثر بلدان الدنيا تقدماً المواضع، لكن أنى للرسام أن يعيش في جنان لوحته المخملية؟ ولو حدث لتحولنا جميعاً إلى رسامين، كما أن الوطنية ليست في أن يكذب هو، ولكن في العمل على أن تتقدم هي.

وإذا كانت قراءة التاريخ هي قراءة للمستقبل، فإننا سرعان ما نكتشف حين المرور على تاريخ مصر أنه سرد مفصل لتاريخ الاستعمار في العالم، وأنه تاريخ منهك بالاحتلالات التي ينتصر بعضها على البعض، ومع كل انتصار يحزره محتل حديث على آخر قديم يخرج المصريون ليحتفلوا بالانتصار الذي لم يحققه ولم يكن لهم فيه ناقة ولا جمل، ومع ذلك يخرج معهم أيضاً مزيفو التاريخ ليحتفلوا بتلك الانتصارات الوطنية الكبرى.

### بوتقة صهر

منذ نشأة التاريخ وبسبب الموقع الجغرافي الفريد، تحولت مصر إلى بوتقة صهر كبرى لكل أجناس الأرض، وجراء عملية الصهر الحميدة تلك تسابق الجميع في إثبات ولأئهم لعبقرية المكان، فصار كل من يسكن مصر هو مصري، ولكن عبقرية المكان تلك هي أيضاً من تسببت في جعلها مرتعاً لكل ضامر سوء أو معتد.

فقبل الميلاد هناك نحو 1400 سنة ظلت مصر فيها تحت الاحتلال الأجنبي، أما بعد الفتح الإسلامي لمصر فتقريباً تقاطعت الاحتلالات عليها، ولم يحكمها المصريون –ونقصد بهم سكانها المستقرين– بشكل مباشر إلا بعد حركة الجيش في 1952، وإن كان يعتقد البعض وأنا منهم أن تلك الحركة أيضاً جاءت في إطار تطوير غربي لأسلوب الاحتلال وبالتعاون معه، وأن الحديث عن استمرار خضوع مصر للاستعمار الغربي إلى الآن هو حديث جدي.

فالهكسوس احتلوا مصر نحو 246 سنة، ثم الدولة الكوشية الإثيوبية 50 سنة، والأشورية 16 سنة، والفارسية 80 سنة ثم 11 سنة، واليونانية احتلت مصر بقيادة الإسكندر الأكبر عامين، والبطلمية 300 سنة، فالرومان 360 سنة، ثم البيزنطية 310 سنة، ثم الفتح الإسلامي لمصر، ثم الدولة الإخشيدية 35 سنة التي وصف الشاعر أبو الطيب المتنبي أبرز ملوكها كافور الإخشيدى بالعبد الذي لا يقرع إلا بالعصا، ثم الدولة الفاطمية الشيعية التي أسست الجامع الأزهر 162 سنة، ثم الدولة الأيوبية الكردية 91 سنة، ثم دولة المماليك 233 سنة وجميعنا بالقطع يعرف قصتهم، ثم بعد ذلك جاءت الخلافة العثمانية التركية والتي تقاطعت معها الحملة الفرنسية على مصر لمدة 3 سنوات، ثم حكم محمد علي الألباني وتقاطع معه الاحتلال الإنجليزي الذي دام 72 سنة.

## تجارب لا منطقية

فيما يبدو أن سيل اللامنطقيات التي ابتدعتها الحكومات المتتالية، وشملت فبركات ودعايات مرسلّة ومسفة ثم صدرت تؤيدها أحكام قضائية قاسية كرسالة واضحة بأنه لا نية لأخذها على محمل التهريج، لم تكن أعمالاً عفوية ولكنها كانت أعمالاً مدروسة ومضموناً تمريرها بسلام في وجدان جزء كبير من المجتمع المصري، نظراً لإدراك "المايسترو" أنه لا داعي للتعويل على وعي الشعب وتجارب التاريخ القريب والبعيد تشهد.

وذلك بدءاً من ثورة المصريين للتخلص من الوالي العثماني على وقع المعاناة من الفقر والجوع ثم جلبهم لرجل أجنبي آخر ليحل محله، مروراً بالكولونيل الفرنسي سيف (سليمان باشا الفرنسي) الذي كان جندياً من جنود نابليون رفض أن يعمل بالفلاحة بعد هزيمة قائده فقرر الذهاب إلى بلاد فارس حينما سمع أنها تسعى لتأسيس جيش من المرتزقة، وأثناء سفره توقفت السفينة التي تقله في الإسكندرية فتعرف على حاكمها فأرسله لمحمد علي ليؤسس له الجيش المصري من غير المصريين، انتهاءً باعتبار جزء من المصريين أحمد عرابي خائناً لبلاده بعد تصديه للاحتلال البريطاني 1882، حتى المشاركة بجوار بريطانيا في الحرب العالمية الأولى ضد الخلافة الإسلامية ودعماً للاحتلال البريطاني لمصر، وهي الواقعة التي يصر البعض على الاحتفال بها، انتهاءً بأربع حروب مني فيها المصريون بالهزيمة الماحقة انتهت بخروج المصريين ليطالبوا بطل الهزيمة بعدم التنحي، والحديث عن اللامنطقيات يطول على ضفاف النيل.

## سمات مصر

ولأن الدول بحسب النشاط الاقتصادي تصنف إلى دول زراعية أو بحرية أو صناعية أو نفطية وما إلى ذلك، يظل تصنيف مصر أمراً محيراً بينهم؛ فمصر التي عرفت بالزراعة لكونها هبة النيل ها هو واهبها الحياة يضمحل، فتستعيز عن جزء من مياهها بتدوير مياه الصرف الصحي، وحتى قبل أن يوشك هذا المتدفق على النضوب وفي أفضل حالات تمامه، وصلت الزراعة في مصر إلى مرحلة بانسة بسبب فساد الإدارة، ويمكننا أن نعود للإحصائيات الزراعية لنعرف الحقائق المؤلمة.

ومصر التي عرفت أيضاً بكونها دولة بحرية تغطي البحار ما يقرب من الثلاثة آلاف كيلومتر من حدودها، إلا أنها تستورد معظم احتياجاتها السمكية من بلدان أقل مياهاً منها.

وعرفت دولة صناعية حيث بدأت الصناعة فيها منذ محمد علي قبل قرنين من الزمان، لكنها تظل سوقاً لكل الصناع في العالم دون أن تصدر أي منتج صناعي مهم، ودولة سياحية بها خمس آثار العالم إلا أن ما ينشط فيها ليس سياحة المعالم الأثرية ولكن السياحة الجنسية على ما يبدو، والتي دمرت بعد أن قاطعها السائحون في أعقاب حادث الطائرة الروسية الشهير.

ودولة نفطية بها حقول هي الأضخم في التاريخ -بحسب إعلام النظام الحاكم- لدرجة أنها صارت تمنح حقولاً ضخمة للغاز كهبات لليونان، وتبيع الغاز بربع سعره العالمي لإسرائيل قبل أن تعود لتشتريه منها بضعف سعره الذي باعته لها لسبب غير مفهوم، رغم الوفرة والحقول الضخمة التي تتحدث عنها، ومع كل هذا النعيم، فمصر بلد يستورد أغلب حاجياته من الخارج من الإبرة إلى الصاروخ، ويعاني شحاً في كل شيء تقريباً عدا البشر، ويشغل أدنى المراتب في أي تنافسية.

ولذلك يجدر بنا حينما نصنف مصر "اقتصادياً" تاريخياً أن نقول إنها دولة "استبدادية"، وأن نعتبر أن "الاستبداد" هو نوع من أنواع الإدارة "الاقتصادية" وليست "السياسية" فحسب، ويتسم بالجهل والأنوية والغفلة والفساد وعدم الموضوعية وعدم الأخذ بالحدود العلمية، ونتأجه قطعاً كارثية.

## بذريعة الاقتباس والتمصير.. شاعت السرقات الفنية في مصر

31 يوليو ، 2022

جددت فضيحة اتهام الفنان التشكيلي الروسي جورجي كوراسوف للمصممة المصرية عادة والي بـ"سرقة" أربع لوحات من أعماله واستخدامها في جداريات محطة مترو "كلية البنات"، الحديث عن ظاهرة السرقات الفنية والفكرية وتفشيها في مصر، خاصة حينما تكون تلك السرقات الفنية مقرونة بوثائق واستنزاف لأموال الدولة.

وبعد قليل من تلك الفضيحة، نشر مراقبون عاملون في المجال ذاته وقائع سرقات أخرى – لا ندري مدى صحتها- اتهموا بها المذكورة لأعمال فنية تخص تصميمات دعاية سياحية لمدينة الأقصر نفذتها سبع فتيات. وبعيداً عن تفاصيل واقعة محطة المترو واعتذارات الهيئة القومية للأنفاق، إلا أن الحقيقة تقول إننا في مصر نتعايش منذ عقود مع كثير من الأعمال المسروقة، ولكن رافق اللصوص شيء من التوفيق فمرت المسروقات بسلام.

فما كاد المجتمع المصري يفيق من تداعيات تلك الفضيحة حتى وجدنا فنانة روسية أخرى تدعى فيرا زولوتارييفا، تتهم مصممي أزياء مسلسل "أحلام سعيدة" بسرقة تصميماتها لترتيديها الممثلة يسرا. ولعل السبب في الضجة الكبيرة التي أثارت حول مثل هذه الوقائع هو ظهور وسائل التواصل الاجتماعي وإفلاتها من الرقابة الحكومية جزئياً وتقريبها بين أقطار العالم، مما جعل أخبار تلك السرقات سريعة الوضوح والشيوخ والشيوخ والفضح.

### طرب مسروق

ولو تتبعنا أمر السرقات الفنية في مصر لوجدنا أن هناك عشرات الأعمال الفنية إما مسروقة كلياً أو جزئياً أو تم اقتباس الفكرة، والغريب أن المؤلفين كانوا لا يرون في ذلك حرجاً حال تم اكتشاف تلك السرقات، فيعللون ذلك بأنهم قاموا بـ"تمصير الأفكار".

ومن نماذج السرقات أو الاقتباسات لحن أغنية "معانا ريال" لأنور وجدي وفيروز عام 1950 المسروق من لحن أوكراني، وألحان أغنيات "تملي معاك" لعمر دياب، و"طمني عليك" لمحمد فؤاد، و"جتلك" لمصطفى قمر، و"كل الأوقات" لسامية سعيد، وغيرها.

لكن موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب امتلك الجرأة ليعترف في حوار صحفي بأنه كان يمارس هذا النوع من الاقتباس في بداية مشواره الفني؛ حيث اقتبس لحن "يا ورد مين يشتريك" من بيتهوفن، و"أحب عيشة الحرية" من فلكلور روسي، وقال: "كان لا بد أن أقول ممن اقتبسهم، وهذه كانت حركة بايخة مني".

## صنع في مصر!

ولا تخلو الدراما الرمضانية كل عام من حدث الاتهامات المتبادلة بالسرقة؛ كما حدث عام 2019 من قيام روائية سعودية تدعى نور عبد المجيد برفع قضية تتهم فيها المؤلف محمد عبد المعطي باقتباس أحداث روايتها "باسكال" في مسلسل "حكايتي"، وما حدث أيضاً مع مسلسل "الهيبة- الحصاد" الذي أثرت اتهامات بأنه مقتبس من مسلسل أمريكي يدعى "الأقنعة الهزيلة".

ومن أمثلة الأفلام التي أثرت حولها اتهامات بكونها مسروقة أو مقتبسة كلياً من أعمال أجنبية، أفلام قام ببطولتها الفنان عادل إمام، مثل: (واحدة بواحدة) المأخوذ من فيلم "lover come back" الأمريكي، و(حنفي الأبهة) من فيلم "48 hours" (خمسة باب) من فيلم "Irma le douce"، و(شمس الزناتي) وأعمال أخرى له.

وهناك أيضاً أفلام: (حلاوة روح، أمير الظلام، بطل من ورق، التوربيني، الإمبراطور، الحرب العالمية الثالثة، عريس من جهة أمنية، الحاسة السابعة، طير إنت، جوازة ميرى، الفيل الأزرق، جيم أوفر). ومن المثير للسخرية أن من بين تلك الأعمال فيلماً يحمل اسم (صنع في مصر) رغم أنه مقتبس بالكامل من الفيلم الأمريكي "Ted".

## السراقات الشعرية والعلمية

السراقات الفنية لم تترك الشعر ينجو لحال سبيله، فالسراقات كما طالت شعراء محدثين طالت في الأكثر شعراء قدامى جداً، مثل الشاعر الكبير ابن عروس (الذي ولد في القرن السابع عشر في قوص بمحافظة قنا)، ويعد كثير من المراقبين قصائده بأنها كانت من أكثر الأعمال التي جرى السطو عليها أو محاكاتها من كبار الشعراء وصغارهم؛ ولعل السبب في ذلك يعود إلى ما تتمتع به مربعاته الشعرية من موسيقى رنانة وحكمة بليغة مختصرة، والأهم من هذا وذاك أن مخطوطاته الشعرية لم تكن متاحة للعامة، مما جعلها مطمعا لكل سارق.

ولو بحث أحدا قليلاً على شبكة الإنترنت لوجد قصصاً كثيرة عن وقائع لسراقات تشمل كتباً وأبحاثاً ورسائل ماجستير ودكتوراه، بل ومقالات رأي.

السراقات الفنية والأدبية في مصر شائعة، ولا يتكشف منها إلا النزر، إذ يراهن السارق على ضعف الذاكرة ويأمن تماماً العقاب.

## الفوارق الجوهرية بين الثورة والانقلاب

25 يوليو ، 2025

ونحن في خضم شهر تموز/ يوليو المعروف عربياً بشهر الانقلابات أو الثورات -حسب رؤية الرائي- يصعب على البعض تمييز الفوارق بين حالة الثورة وحالة الانقلاب، وقد اختلط عليهم الأمر بسبب تشابه مظاهر الغضب والمروق في الحالتين، يدفعهم في ذلك قوة منطق الدعاية التي تخلقها الفئة المنتصرة، مضافاً إليها بعض العوارض والشواهد الطبيعية أو المصطنعة التي تجعل الأمر عندهم ملتبساً.

هناك تعريفات كثيرة للثورة تتفق جميعها في توجيهها نحو السلطة، وأنها غالباً ما تقترب بعمل عنيف؛ منها أنها حالة اندفاع جماهيري غاضب من أجل إجراء تغيير أساسي في السلطة، ومنها أنها عملية تغيير قسري كامل لجميع المؤسسات والسلطات الحكومية في النظام لتحقيق طموحات تغيير النظام السياسي.

وفي المقابل، يعرف معجم أوكسفورد الانقلاب بأنه تغيير مفاجئ في نظام الحكم يقوم به في العادة بعض رجال الجيش، بينما يعرفه المعجم الفرنسي بأنه محاولة غير قانونية وعلنية من قبل منظمة عسكرية أو نخب حكومية أخرى لإزاحة القيادة القائمة.

وأخبرتنا تجارب السابقين أن الثورة عمل خطير يقدم عليه ثائرون يعون أنهم قد يفقدون حريتهم أو أرواحهم ثمناً لها، لكنهم أقدموا عليها لأنهم وصلوا إلى حالة من القناعة واليقين بأن عواقب السكون أخطر عليهم من عواقب الثورة.

وعلمتنا أن الثورة حالة احتجاج مقصدها المباشر تغيير السلطة، ولذلك فهي تتجه دائماً من الأسفل -حيث القاعدة الشعبية- نحو الأعلى بغية تغيير قمة الهرم السياسي، في حين أن الانقلاب عادة ما يأتي من داخل قمة هذا الهرم ذاته حيث تتمركز السلطة، وينطلق من المراكز القوية فيه لنقاطها الأضعف.

ومن أهم نتائج الثورة هي أنها تقلب الأوضاع السياسية رأساً على عقب بطريقة يستشعرها الناس وتعود عليهم مردوداتها السياسية والاقتصادية والأمنية وغيرها، أما الانقلاب فعادة ما يقود إلى نفس الأوضاع التي كانت عليها أثناء النظام السابق، وربما تقود لما هو أسوأ.

الثورة عادة تقوم ضد النظم غير المنتخبة، أو تلك المنتخبة بشكل صوري لا يعبر عن الواقع، أما في الانقلاب فتكون الحكومات المدنية عادة صيداً سهلاً يغري أصحاب السلطة بالانقلاب عليها لكونها لا تملك مقومات حماية ذاتية، وفي أحيان أخرى يغريهم الانقلاب على حكم مستبد

وصل لمرحلة متأخرة من الترهل والتراخي بسبب طول فترة حكمه، ويغريهم أيضاً الانقلاب على حاكم مستبد وصل استبداده إلى مرحلة لا يمكن تحملها بحيث تهدد قسوته بإسقاط النظام والدولة برمتها؛ هنا تتدخل أطراف من السلطة لإجراء عملية جراحية لتحسين شروط الاستبداد بما يحافظ على بقاء سلطتهم وبقاء الدولة، وقد يتحقق معها الحد الأدنى من الحرية الشخصية.

## السلطة وأدواتها

ويبقى هنا تعريف السلطة التي يمكن حصرها إجمالاً في أدوات القوة والنفوذ عامة، وفيمن يملكها أو بيده زمام توجيهها خاصة، وبذلك التوصيف يصبح سهلاً فهم أن الجيش والمخابرات والشرطة والقضاء هم المقصودون بالسلطة، وقد تنضم إليهم عدة مراكز تأثير ممن يرتدون ملابس مدنية من رجال إعلام وأعمال ودين وفن، وهم الذين يتقوون بالسلطة ويقوونها في ذات الوقت.

ويجدر التنويه إلى أن هؤلاء عادة ما يكونون الأكثر تضرراً من حالة الثورة لكونهم الحلقة الأضعف من حلقات السلطة، وغالباً ما يحقق غضب الثائرين فيهم غاية بسهولة، فيتم تحبيددهم في اللحظة الأولى، وكثيراً ما يلجأون إلى التحول السريع لدعم السلطة الجديدة، في حين أن الحلقات العليا من السلطة قد منحتها خبراتها وعلاقاتها التي كونتها إبان سطوتها الهرب إلى رعاتها في الخارج، وذلك بناءً على اعتقاد سائد في العالم الثالث بأنه لا يوجد استبداد في بلد ما دون أن يكون له رعاة خارجيون نافذون، وهؤلاء هم الذين رأيت فيهم تلك السلطة المستبدة أن الولاء لهم والاحتماء بهم أفضل لها من الولاء والاحتماء بالشعب، وذلك لأنها تدرك أنها تحقق مصالح هؤلاء الذين في الخارج، في حين أن مصلحة شعبها في غيابها.

## حديث حول المشروعية

وفي الحديث عن مشروعية الثورة هناك محددات تجعلنا نميز بينها وبين الانقلاب، منها الوعي؛ سواء في الدوافع أو الإجراءات أو الغايات، والذي في حال اقتقاده سيحولها إلى عمل فوضوي يمكن الاستبداد ولا ينتزعه.

والثورة هي عمل ملح، بمعنى أن هناك تعبيراً عن حاجة جماهيرية حقيقية ماسة لها، وهي عمل غاضب مدفوع بتأثير ألم مادي ومعنوي لدى الثائرين وليست مجرد نزهة ورفاهية.

أما الانقلاب فإجمالاً لا توجد أي مشروعية له لأنه عمل غير قانوني أو دستوري، وغير أخلاقي أيضاً، لكن هناك حالة واحدة يمكن تقبله فيها؛ وذلك حينما يكون عدم وقوعه سيقوض إرادة الشعب، بمعنى أن السلطة التي سيقع ضدها الانقلاب سلطة أصلاً لم يخترها الشعب، أو أن الشعب اختارها وأعطاهها فرصتها الدستورية كاملة، ثم بعد انتهاء مدتها القانونية خالفت القواعد وأرادت القفز نحو الحكم المطلق دون رغبة ناخبها، فيصبح في هذه الحالة الانقلاب صيانة للديمقراطية والدستور وليس تخطياً له.

عموماً، متى اُحترمت الدساتير.. انتهت ظاهرة الثورة والانقلاب.

الفصل الثاني:

# العروبة والعربية والإسلام

# الهجوم على صلاح الدين جزء من الحرب على الإسلام

2 فبراير ، 2018

محاولات بعض القوى في الغرب وأنصارها في الداخل العربي، وتحديدًا في مصر، شيطنة البطل الكردي المسلم صلاح الدين الأيوبي، لا تعود إلا لكونه قائداً مسلماً ناهض طموحات الحملات الصليبية، خاصة أن تعبيراتهم التي تتم عن كراهيته لا تتوقف على مر التاريخ، وتجاوزت مرحلة النقد الذي ينتقد به أي رجل خلّده التاريخ إلى السب والتفريع؛ كما يحدث كثيراً من أحد الروائيين "ي.ز" الذي تفرغ في لقاءات إعلامية عديدة لمهاجمة الرجل، مدعياً أن النظام كلفه بتجديد الخطاب الديني، واصفاً صلاح الدين بأنه "أحقر شخصية في التاريخ".

يأتي الهجوم على الرجل بدءاً من التعرض له بالتحقير في بعض الموروثات الشفهية البسيطة التي كانت متداولة اعتيادياً، وصولاً إلى تصريحات الساسة الإمبرياليين وبعض رجال الكنيسة المتطرفين، انتهاءً بتدنيس قبره. حيث وضع خبثاء أغاني مشهورة كان يرددونها قديماً الأطفال في صعيد مصر دون وعي منهم بمدلولاتها انسياقاً وراء القافية الموسيقية، تسخر من الرجل وتقول مقدمة إحداها مثلاً: "صلاح الدين الأيوبي ضربته بفرجة مركوبي" (أي حدائي).

وفي الحرب العالمية الأولى، حرص الجنرال البريطاني اللنبي حين دخل دمشق أن يقول: "الآن انتهت الحروب الصليبية". فيما حرص قائد الجيوش الفرنسية الجنرال هنري غورو على أن يزور مرقد وضريح صلاح الدين الأيوبي وأن يضع قدمه فوق شاهده مردداً قوله: "ها نحن عُدنا يا صلاح الدين". كما هاجمه رجل الدين والمستشرق أرنت رومان عام 1883 ووصفه في كثير من خطبه بصفات تحطّ من شأنه (راجع كتاب الصورة النمطية للعرب والمسلمين في أوروبا - الدكتور منير حجاب).

## الغرب المنصف

ولكن في الاتجاه المقابل، كما حفل المشهد بكثير من الناعقين على الرجل، حفل أيضاً بأضعافهم من المنصفين الغربيين الذين كسبت مواقفهم احترام المسلمين حول العالم؛ فحينما زار الإمبراطور الألماني غليوم الثاني الإمبراطورية العثمانية قبيل الحرب العالمية الأولى، حرص على زيارة ضريحه بدمشق ووضع عليه إكليلاً رائعاً من البرونز صنّع خصيصاً في برلين احتراماً لإسهاماته في الحضارة الإنسانية (وبقي هذا الإكلييل على الضريح حتى دخل الإنجليز دمشق فسرقة الجاسوس البريطاني الملقب بلورنس العرب بدعوى أنه من الغنائم الحربية).

كما مدح المؤرخ البيزنطي نكتياس خونيئاتس صلاح الدين ووصفه بأنه كان رحيماً حينما تمكّن من فتح القدس، أكثر مما كان الصليبيون رحماء بالمسلمين حين غزوها، وعن ذلك قال ميخائيل

زابوروف (المؤرخ الروسي): "إن رحمة صلاح الدين بالمسيحيين كانت سبباً في دخول الصليبيين للإسلام".

وقال عنه المؤرخ البريطاني هاملتون جب: "يشكل عهد صلاح الدين أكثر من حادثة عابرة في تاريخ الحروب الصليبية، فهو يمثل إحدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري".

### تقييم الرجل

قد يكون للرجل هفوات أو أخطاء، لكن علينا أيضاً الاحتراز والإنصاف لنقول إنه ليس بنبي أو معصوم، بل هو سياسي خضع لإرادة الأمة وجاهد لتحرير كامل التراب الوطني من الاحتلال الاستيطاني الصليبي، واتخذ قراراً بمحاربة العدو لا التواطؤ معه.

فكثير من مشاهير الغرب كانت عليهم مأخذ سلوكية، ولكن ذلك لم يمنع الغربيين من تبجيلهم؛ فمثلاً في مجال الأدب، لم يكن خافياً أن الأديب الإيطالي "دانتي" اقتبس كوميدياه الإلهية من "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري في وصف الجنة والنار، ورغم أن دانتي وضع الناصر صلاح الدين ضمن سكان الجحيم في كتابه، إلا أنه اختصه بمرتبة عليا فيه تضم الشخصيات الإصلاحية الجيدة التي تعذب فقط لأنها لم تكن مسيحية كاثوليكية.

ومع ذلك، فصلاح الدين خُلد في التاريخ كرمز مقاوم انتزع بيت المقدس من سارقيه وأعادته إلى أصحابه الأصليين في لحظة نادرة.

ولعله ليس من قبيل الصدفة أن يوسف زيدان لم يكن وحده من تطاول على صلاح الدين، بل هناك للأسف كتاب منتسبون للعروبة يجمع بينهم تشكيكهم في ثوابت الإسلام؛ مثل الكاتب السوري نضال نعيضة، وأحمد راسم النفيس. ولعل زيدان قد سقط سقطة سقطها من قبله الروائي أسامة أنور عكاشة حينما وصف عمرو بن العاص في 2004 بأوصاف غير لائقة. على كلٍّ، فالرجل حفر اسمه في التاريخ كصاحب ملحمة الدفاع عن الأقصى ولن ينال منه سباب الإعلام.

## البعض يخوضونها حرباً على الإسلام

5 أغسطس، 2019

لا تنفصل الحروب المتكررة التي تتعرض لها تركيا بتاتاً عن التوجه الذي أنتحته بالانفتاح باتجاه الوطن العربي والإسلامي والعودة للثقافة الإسلامية بعد طول تغريب، وقد وعى حزب العدالة والتنمية والسيد رجب طيب أردوغان ذلك وراح يؤكد متحدياً بأن تركيا دولة مسلمة، وأن السر وراء الحرب على تركيا هو كراهية البعض للإسلام.

ومن الواضح أن الكثير من الحروب التي تشتعل في بقاع شتى من العالم مصدرها كراهية البعض للإسلام، وهو ما جعل الرئيس الأمريكي دونالد ترامب يشير في العديد من الأحاديث الصحفية له بأنه يعتبر "الإسلام" عدواً لأمريكا، وأنه ينبغي منع المسلمين من دخول هذا البلد، وراح يؤكد بعد هجوم إرهابي نفذته مسلم "مثلي" ضد ملهى ليلي للمثليين بأمريكا أن رؤيته حول المسلمين تتعزز، ناهيك عن اعتباره بأن وجود 200 ألف لاجئ سوري في أمريكا يعني وجود 200 ألف إرهابي، وأن ملايين المسلمين حول العالم يحملون الحقد في قلوبهم تجاه أمريكا.

ونفس هذا المعنى رده مايكل فلين مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي عام 2017 مؤكداً أن الإسلام سرطان خبيث في جسد 1.7 مليار مسلم يجب استئصاله كما تم استئصال النازية والشيوعية من قبل.

وكان الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب قد أعلنها صريحة في تسعينيات القرن الفائت عقب سقوط الاتحاد السوفيتي بأن أمريكا هزمت الفاشية – في إشارة ضمنية لهتلر وموسوليني –، وهزمت الشيوعية، وبقيت الحرب على الإسلام، وذلك قبل أن يخرج مساعده ليعلنوا أنها كانت مجرد زلة لسان.

وامتد الأمر إلى مطالبة سياسيين ومشاهير غربيين – وعرب للأسف – بحذف آيات من القرآن الكريم بدعوى التحريض على العنف، متجاهلين كتباً مقدسة لديانات أخرى تحمل نفس المعاني، والغريب أن التحريض على الإسلام وصل لدرجة أن البعض تظاهروا وهم يجهرون فيها بالإفطار في نهار رمضان، مما جاء كدلالة واضحة أن الحرب التي تُشن باسم الحرية هي حرب على الإسلام في الأساس.

يأتي ذلك رغم كل هذا الاحتراب وسيول الدماء المسلمة التي تنهمر حول العالم، وآلاف ساعات البث في آلاف الفضائيات التي تفرغت لهدم الإسلام في النفوس، وشيطنة رجال الدين الإسلامي والمتدينين المسلمين دون غيرهم بالدراما والأخبار، وصولاً إلى برامج الطبخ والرياضة، إلا أننا قد نجد هناك من حسني النوايا من يشككون في أن هناك حرباً تُشن على الإسلام من الأساس، فما بالك لو قلنا لهم إنها أيضاً حرب عالمية لا تقل ضراوة عن حربين عالميتين خاضتهما البشرية القرن الماضي!

ومع ذلك لا يفوتنا التأكيد أيضاً أنه كما يوجد في الغرب من يكرهون الإسلام ويحاربونه، يوجد كثر بينهم يدافعون عنه أكثر من دفاع المسلمين أنفسهم عنه.

### الأمصال الميتة

ومن أنجع وسائل الحرب على الإسلام استخدام فكرة "الأمصال"، وهي تلك التي تستخدم في الطب لمكافحة الأمراض من خلال حقن الخلايا أو الميكروبات الحية بخلايا أو ميكروبات أخرى ميتة فتقتلها.

وتعود أهمية تلك الطريقة لوجود إيمان راسخ لدى خصوم الإسلام استقوه من تجارب التاريخ بأنه دين لا يمكن قهره في مواجهة مباشرة نظراً لعمق تأثيره في نفوس المؤمنين به، لدرجة تجعلهم يقدمون حياتهم وأعلى ما يملكون لنصرته دون ندم، وأدرك هؤلاء الخصوم أيضاً أن أضمن وسيلة للنصر عليه لا تأتي إلا من أتباعه وممن ينتسبون إليه، لذلك ليس من الصدفة أن يُزجر ويُضيق الخناق على كل مؤمن محافظ نابيه، فيما يُفتح باب الإعلام على مصراعيه لكل ناعق مشكك هادم من نماذج تلك الأمصال.

وإمعاناً في التضليل، تُسبغ على تلك الأمصال الميتة صفات تغري الناس بالإنصات إليها بوصفهم من المفكرين المجددين الذين يطرحون أطروحات مقنعة، تبدو لسامعيها منطقية للغاية، رغم أن الثابت أن الأديان عامة لا تُقاس شعائرها بالعقل المجرد لكونها تتحدث في كثير من فقهها عن غيبيات تفوق قدرات ومقاييس البشر المنطقية والعقلية، ولكن يجب الإيمان بها جملة واحدة نقلاً لا عقلاً.

### النزوع الإنساني

ومن الأساليب أيضاً، استبدال التعاليم الدينية بالقيم الإنسانية، وخطورة هذا الأسلوب أن الفرق بين هذا وذاك لا يلفت انتباه العامة بسهولة خاصة أن هناك تشابهاً ظاهرياً كبيراً بينهما حتى وإن اختلف الجوهر أو تناقض.

فالزنا مثلاً هو فعل محرم في الإسلام وله عقوبة مغلظة، لكن إنسانياً -في المفهوم الغربي المادي- هو علاقة خاصة مرحب بها ولكن يجب فقط سترها، وينطبق على من يخترق هذا الستر عرف "العيب" الذي صار هو الآخر عرفاً مهدداً بالزوال في مجتمعاتنا.

كما أن أهم فرق بين ما هو ديني وما هو إنساني أن العرف الاجتماعي قابل للتطور والتغير والزوال، أما الفقه الديني فتأبى لا يمكن تغييره.

ويتم التكريس للنزوع الإنساني كبديل للنزوع الديني في الأعمال الدرامية والفنية "الراقية" والهادفة والتي تحظى باحترام المشاهدين، وفي المقابل فإن الأعمال التجارية أكثر وضوحاً في عدائها فهي تحطم ما هو ديني وما هو إنساني معاً.

ويضاف إلى ذلك محاولة "فتكنة" الإسلام (جعله كالفاتيكان) وجعله ديناً للسلوك الفردي فقط، ويؤكد مستشرقون غربيون مثل "أرنست رومان" أن الإسلام لا يبقى إلا كدين للمجتمع، وأنه لو حُصر في السلوك الفردي فسيندثر.

### تشويه بيئة الإسلام

وتشمل الحرب أيضاً الإساءة إلى كل ما يرتبط بالإسلام من شخوص ورموز وعادات ودول وثقافات، ولكن كل ذلك دون الإشارة إليه مباشرة؛ كأن تهاجم مثلاً الشخصيات الرمزية الإسلامية ونصمها بالإرهاب والدموية، أو اتباع أساليب الغدر والخيانة أو الولوج الجنسي وما إلى ذلك من نقائص، والافتراءات التي طالت صلاح الدين الأيوبي وعمرو بن العاص وأبا هريرة والبخاري ومسلم نموذجاً.

وتهاجم أيضاً تراث وثقافة العرب – التي هي في الأساس ثقافة الإسلام – واتهامها بالهمجية والتخلف والبداءة وعدم مواكبة الحضارة.

وكما أن اعتبار معاناة أوروبا من الاستبداد وحكم إمبراطورياتها العضود في القرون المظلمة لا يعبر عن المسيحية، وجب القول إن نظم حكم المسلمين المستبدة لا تعبر أيضاً عن الإسلام الذي سبق الجميع بالحديث عن الشورى والعدل والإحسان.

ولذلك ليس مستغرباً أن نصف الهجوم على الدولة العثمانية – كممثلة لدولة الإسلام آنذاك وأحد أهم أسباب بقاءه- ووصمها بالتخلف والاستبداد دون الحديث عن الوضع العالمي وما فيه من استبداد أفدح، هو قدح في الإسلام.

وأيضاً يتم صناعة تعارض بين القومية العربية والإسلام من خلال أحزاب وحركات تتمسح بالرداء القومي، ومع ذلك تحنقر حقيقة ارتباط القومية العربية العضوي بالإسلام وتحنقر

الوطنية لنفسها، وفي عكس الاتجاه تقريباً يتم السعي لتخريب علاقة الإسلام بالقوميات الأخرى بمحاولة وصمه بأنه دين العرب لا سواهم، وبعد ذلك تأتي مرحلة تعظيم الاختلافات المذهبية داخل الإسلام وصب الزيت على نارها المستعرة.

## المواقع الإباحية

أما عملية إفساد المجتمعات الإسلامية فهي تجري بخطى حثيثة وراسخة من خلال وسائل الإعلام والدراما والإنترنت وغيرها، ووصلت لمستوى من النجاح لدرجة أنها أثرت في شرائح واسعة من المجتمع وأقنعتها بأن الانحراف الفكري والسلوكي قد يكون حلاً لكثير من المشكلات الحياتية، وتم ذلك بتواطؤ واضح من النظم الحاكمة.

وفي عام 2011 وعقب الثورة، ارتفعت أصوات تطالب بحجب المواقع والفضائيات الإباحية فخرج على الفور الخبراء المحمولون على عجلة يؤكدون استحالة ذلك مالياً وتقنياً، إلا أنه في عام 2017 تم حجب في أسبوع واحد ما قدره 500 موقع إلكتروني وعشرات الآلاف من صفحات الفيسبوك وتويتر متهمة بالعنف والارهاب، وفي المقابل اختفت أصوات الخبراء المحمولين أو خرجت لتبرر أهمية الحجب، فيما تضاعفت أعداد المواقع الإباحية!

الإسلام يتعرض لحرب ضروس وعلى كافة الأصعدة، لكن أخطر ما فيها أن المسلمين أنفسهم لا يعتقدون أن هناك حالة حرب على دينهم.

## دولة الخلافة

وفي الأصل، كانت الحدود الجغرافية الفاصلة بين مناطق تواجد شعبنا العربي أو أمتنا الإسلامية، هي نتاج لجريمة شنعاء ارتكبتها ألد أعدائنا فينا بغية إذلالنا وتركيعنا وتمزيق وطننا الكبير، وقطع أرحامنا وتفريق وحدتنا، ثم قاوم أجدادنا بكل عزم هذه الفتنة الكبرى بوصفها عملاً يتنافى مع مبادئ الوطنية وتعاليم الدين التي تلزمهم بأن المسلمين أمة واحدة، إلا أنهم هُزموا، ففرضت تلك الحدود عليهم فرضاً، وكانوا يكونون لها كل الأسف والإنكار، ولكنهم مع مرور الوقت اعتادوا عليها حتى جاء الوقت الذي يقيسون فيه الوطنية بمدى تقديس تلك الحدود، بل أصبح الانتماء لها أهم من الانتماء للجنس والعرق والدين والثقافة، ثم مع زيادة انحطاط عصر الانحطاط، تبدلت المعايير وأصبحت الوطنية هي أن تقديس تلك الحدود تارة وتبرر بيعها وإهداءها وإيجارها تارة أخرى، تماماً كما يفعل الوثني الذي يصنع إلهاً من العجوة ليعبده وحينما يجوع يأكله.

وعموماً لو كان هناك فضل لأحد بعد الله في بقاء حضارة الإسلام لكان للدولة العثمانية حتى وإن كانت تعبر عن حكم عضود لا يمثل مبدأ الشورى الإسلامي كاملاً، فهي ظهرت في عزم

تساقط الممالك الإسلامية كأعشاش القش أمام جحافل المغول القادمين من الشرق، وسيول المتطرفين الصليبيين القادمين من الغرب والذين أبادوا كل مظهر للحياة في طريقهم في تلك الأثناء، كما أنها في ظل انحسار العالم الإسلامي وفقدانه الملايين من شعبه وأراضيه كانت الدولة العثمانية هي من تجهض العدوان تارة وتدعو للإسلام تارة في زمن كان كل شيء فيه يؤخذ اغتصاباً.

## شعارات الوحدة

ولأن الشعوبية هي الوضع المثالي بما فيها من ضيق أفق وانتهازية ونفاق لتمكين الإمبريالية واستخدامها كبديل عن الانتماء للوطن الأوسع والأعم، توجب صناعة مرحلة وسيطة يتم خلالها نقل الناس لحالة الضيق وذلك عبر نقلهم من الانتماء لدولة الإسلام التي اعتادوها كما كان في الدولة العثمانية -ولو ظاهرياً- والتي انهارت بفعل الضربات الغربية في الحرب العالمية الأولى وتغلغل جواسيسه في داخل الجيش التركي وخيانة قادة الحلفاء المسلمين العرب، إلى الدولة القومية وهي الأصغر قليلاً، ثم استمر التقزيم وصولاً للأمة الشعب وربما الأمة المدينة في الطريق.

وينبغي هنا التأكيد أن الدولة القومية تلقى قبولاً في قلوب العرب وعقولهم نظراً لاعتزازهم المعروف بأسلافهم، إلا أن هذا النوع من الدول لم يكن أيضاً مسموحاً به إمبريالياً بدليل ما جرى فيما بعد مع صدام حسين في العراق، ولكن تم استدعاء طيفه وإفشاله ليؤدي انتقالاً ناجحاً للشعوبية.

لذلك فليس عيباً أن تحن كعربي إلى الوحدة العربية والعودة لحدود ما قبل سايكس بيكو، وهو ما تعلمناه في المدارس واعتبرنا أن إنشاء الجامعة العربية عام 1945 بمثابة اللبنة الأولى لها، وليس عيباً أيضاً أن تحن كمسلم لدولة الخلافة الإسلامية التي اخترلنا كل تاريخها الذي استمر 6 قرون حامية للإسلام والمسلمين في العالم في نصف القرن الأخير منه، والذي بدأت فيه تنهار حينما اتبعت سياسة "النتريك" عبر الجمعية المشبوهة "الاتحاد والترقي".

رغم أن تلك الدول هي من شجعت عبر الممثل السامي للاتحاد الأوروبي "كاثرين أشتون" الانقلاب على الرئيس المنتخب في مصر، وهي من غضت الطرف عن جميع جرائمه وراحت تدعّمه بكل ثقل لها.

هم لماذا يكرهون الدولة العثمانية دون كل الدول التي كانت قائمة آنذاك؟ هل لأنها مثلاً كانت دولة غير ديمقراطية؟ إذن فلماذا يكرهون أحدهم على اسم دولة واحدة كانت تعتمد الديمقراطية في هذا الوقت!

وهل كانت فرنسا دولة ديمقراطية وهي تجتاح العالم وترتكب المجازر بحق شعوبه وقومياته وتخيرها بين الموت أو اعتناق دينها والتزام ثقافتها؟ هل كانت بريطانيا العظمى التي لا تغيب عن مستعمراتها الشمس دولة ديمقراطية؟ هل كانت الإمبراطورية الروسية دولة ديمقراطية وهي تستذل الشعوب المسلمة وتمسح هوياتهم وديانتهم؟

هل كانوا يكرهون الدولة العثمانية لأنها كانت إمبراطورية وراثية؟ فهل كانت هناك غير تلك النظم؟ جميع نظم الحكم كانت ممالك آنذاك إلى أن تفجرت الثورة الفرنسية لتتحول بعدها فرنسا إلى جمهورية ولكن وراثية!

يقولون إنها كانت دولة غير ديمقراطية، ولم يقولوا لنا إن كل نظم الحكم آنذاك لم تكن تعرف الديمقراطية، ويقولون إنها كانت إمبراطورية تخضع عدداً من الشعوب والقوميات المختلفة تحت لوائها، ويتجاهلون أنها كانت مظلة لشعوب وقوميات مسلمة تكن لها الولاء والاحترام، ويتجاهلون في الوقت ذاته الإمبراطوريات الغربية التي كانت تناصبها العداء والتي استذلت شعوب الأرض وقتلتها ونهبت ثرواتها وأجبرتها على اعتناق دينها وتبني ثقافتها.

يقولون إنها كانت دولة متخلفة، مع أن أوروبا لا الدولة العثمانية هي التي عاشت طيلة قرون ما يعرف بعصور الظلام.

## الزواج الحرام.. العلمانية والقومية العربية

2023/فبراير/27

لا أعرف كيف تم دس العلمانية في الفكر القومي العربي، خاصة أن هذا النوع من العلمانية يتقوت على أيديولوجية وضع الدين في حالة الاصطدام مع القوم، في حين أن القوم أنفسهم -وهم الواجب على القوميين أن يبرزوا ويُعلوا من شأن خصائصهم الفريدة- لا يقصدون إلا هذا الدين بل ويعدونه المميز الوحيد لقوميتهم، والأسمى مرتبة منها.

ولم لا؟ وهو الدين الذي ميزهم بأنه اتخذ منهم رسولاً يُذكر اسمه في كل صلاة يومياً في أرجاء العالم كافة، واتخذ من لغتهم التي تُنسب إليها قوميتهم لغة وحيدة لأسمى مراجعه المقدسة.

أكاد أجزم بأن ثمة مؤامرة فكرية عشناها على مر العقود الماضية، وضعت العربية أمام الحصان، تعالت فيها فكرة القومية العربية على هذا النحو المريب والمعوج فاتخذت من الإسلام خصماً لها، بدلاً من أن تجعله عمودها الفقري، مما نجم عنه أن تهالكت العربية وكاد الحصان يفلت من بين يديها ليذهب إلى أقوام آخرين يقدرّون قوته.

### تجربة الدولة العثمانية

لعل تلك الفكرة تنامت في وطننا العربي بعد انهيار الدولة العثمانية، وهي الدولة التي كانت تقدرّ خصائص العربية وتُعلي من شأنها ولم تجرؤ أبداً على الاستهانة بها، فكان هذا سبباً من أسباب التمدد الهائل لها في رقعة خريطة العالم، مساحة وزمناً، وكان سبباً أيضاً في أن تقدرّ الأمصار كلها تلك الخلافة العظيمة.

خاصة حينما جعلت اللغة العربية جزءاً أصيلاً من الهوية القومية التركية، وجعلتها لغة العلوم والثقافة والتعليم، رغم أن التركية كانت هي اللغة الرسمية في الداخل التركي في حين كانت العربية والتركية والفارسية هي اللغات الرسمية للخلافة العثمانية، وبذلك حظيت العربية بنصيب هائل من العناية فصارت لغة تفكير حضارية في كل الأصقاع الإسلامية التي تستظل بمظلة الباب العالي.

ولهذا، فحينما ينس الاستعمار الغربي المتربص بالإمبراطورية الجامعة للعالم الإسلامي من إمكانية كسرها عسكرياً وسياسياً وثقافياً، لجأ إلى تفتيتها من الداخل عبر الزج بالكثير من المخدوعين والمتأمريين وضحال الأفاق في جميع أمصارها، ليدعوا إلى فصل قومياتهم عن

الإسلام، فُخدع الترك بالترريك، وُخدع العرب بالدولة العربية الكبرى، وُخدع الفرس بإعادة أمجاد الأكاسرة والساسانية، وهكذا في القوميات كلها.

وكانت النتيجة أن سقطت الدولة العثمانية لكن لم تنهض تركيا ثانية لعقود طويلة بخلاف ما أرادها المنكمشون في داخلهم، وسقط العرب والفرس في الاستعمار الحقيقي والمتخفي بدلاً من أن يتحرروا، وتفتت رقعة بلادهم أيما تفتت.

### علمانية هنا ودينية هناك

في حين أن دول أوروبا ربطت لفترات طويلة في تاريخها بشكل مباشر بين الهوية القومية والدينية، لدرجة يمكن فيها اعتبار أن نزاعاتها التي أدت إلى كل الحروب الداخلية والخارجية المعروفة بينها، كانت في الأصل نتائج للتعصب المذهبي والقومي بينها.

فضلاً عن أن العلمانية نفسها هناك أُقرت للحيلولة دون الفشل الدائم في منع الصدام القومي والمذهبي، وقد ساعد على نمو التجربة ونجاحها هناك افتقار المسيحية إلى "الفقه" و"طقوس الحياة اليومية" التي تتوافر في كثير من الأديان في العالم ومنها الإسلام.

لذلك نجد الفلسفة العلمانية الغربية الظاهرة تقول "ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، لكننا نحن - المسلمين- مأمورون في ديننا بأن نُحْكَم الدين عندنا في كل تفصيلاً من تفاصيل الحياة، لأن ديننا هو دين ودينا، وبالتالي فحينما نتحدث عن القومية العربية فلا بد من ربطها بالإسلام.

كما يوجد الكثير من الأحزاب القومية، والدول القومية، والأقاليم القومية، يكون فيها الدين أو المعتقد أو الثقافة هي المحاور الأساسية لتشكل الانتماء القومي، لا سيما في الهند وبورما والكثير من بلدان شرقي آسيا، وجنوب الصحراء الأفريقية الكبرى.

بل إن هناك أناساً من أوطان وأجناس ولغات وألوان متنوعة، تترسوا حول دين جامع بينهم ليجعلوه هو القومية التي تجمعهم، تماماً كما فعلت "إسرائيل"، التي لم تكف بأنها سرقت الأرض التي جمعت عليها كل هذه الأجناس غصباً، بل أقرت قوانين تسلب من غير اليهودي مواطنته، وبالطبع تقصد بها صاحب الأرض الأصلي.

ولعل من العجيب حقاً أن تجد أحزاباً قومية في العالم غير الإسلامي تحتفي عملياً بدين القوم الذين تمثلهم، في حين أن قوميين العلمانيين يجعلونه مجرد شعارات لزوم "اللقطه" يرفعونها بخجل وعلى استحياء كلما اقتضت المنفعة، وفي كثير من الأحيان يقودون حملات الصدام معه.

والخلاصة أن كثيراً من القوميين العرب ولأسباب مريبة بدّلوا انتماءهم إلى قوميتهم بالانتماء إلى فكرة العلمانية الفضاضة، وليتهم فهموا جوهرها، فهم استخدموها -فقط- لكسر الإسلام، وما هو بمنكسر حتى تقوم الساعة .

بعد كل ذلك يأتي السؤال: لماذا نحن -العرب- صرنا نغط الحق ونغبط الباطل، ونجيد تحطيم مصادر قوتنا بأيدينا في المجالات كافة؟

## نقاط العرب وأصفارهم

5/مارس/2007

رغم أن العرب كانوا أول من اخترع "النقطة" في الأبجدية و"الصفير" في الحساب، إلا أنهم لا يزالون حتى الآن لا يجيدون استخدامهما على النحو الأمثل؛ فنجدهم إما يضيفونهما في غير موضعهما أو يحذفونهما دون حاجة للحذف، ويصر أحفاد العرب الفاتحين على الوقوف دائماً عند حد الصفير في كل مواقفهم.

ومن العجب أن نجد العرب -الذين فتح الأقدمون منهم الدنيا بحالها وبسطوها لثقافتهم بعدما اصطفقتهم مشيئة ربهم في أن يخرج منهم ومن ثقافتهم أعظم برنامج حضاري متكامل متجسداً في الدين الإسلامي، الذي هو في الأصل نتاج مهذب لتلك الثقافة، فضلاً عن أن الخالق جل في علاه اصطفى أرضهم دون غيرهم لتكون مهبطاً لكل ديانات السماء- إلا أنهم -أي الأحفاد- راحوا يخلعون رداء الإعزاز، ودخلوا حلبة الصراع عراة مجردين من كل الأسلحة، فما هم راحوا مكانهم، ولا هم تقدموا، بل بدلوا من أخلاقهم فجعلوا التسامح "تماسحاً"، و"التناغم" "تتاقماً"، وحال سبيلهم يقول ما قاله شاعرهم: "أسد علي وفي الحروب نعامة.. عار عليك إذا فعلت عظيم."

ورغم أن الفرق بين عرب اليوم والغرب مجرد نقطة، إلا أن تلك النقطة كان لها تأثير يقلب موازين الحياة، لا سيما لو ترافق مع هذه الزحزحة تغييراً لموضع حرف عن مكانه. ومع عبثية النماذج التي سأسوقها، إلا أنه ما من شك أنها تلاقي صحة، بل ودقة في توضيح الاختلاف الجذري بيننا وبينهم.

فحينما تختلف النظم الحاكمة في العالم الغربي في مسألة ما، يلجأ الساسة إلى أعمال "المحادثات" و"التفسيرات" لحل الأزمة بينهم، وغالباً ما يتوصلون إلى اتفاق يحفظ ماء وجه الخصوم، وإذا لم يتوصلوا تُطرح "المبادرة" تلو "المبادرة" حتى يغير أحد الخصمين موقفه، إلا أن هذا النموذج في النظم العربية مختلف تماماً؛ فأعمال "المحادثات" و"التفسيرات" تتحول إلى أعمال "مخابرات" و"تفجيرات"، فيما يستصعب بعض أمراء الخليج اللجوء إلى أساليب الإقناع وطرح "المبادرات" وينتهج أسلوباً يراه فعلاً وهو أسلوب "المبادرات" وشراء الذمم.

وبدلاً من أن يجيد ساستنا ومثقفونا أسلوب "الحوار" بعضهم مع بعض كما تفعل أي أمة متحضرة، نراهم مغرمين حتى الثمالة بممارسة فن "الخوار" بكل ما يعتريه من "عوار".

وتسعى النظم الغربية إلى "تدليك" مواطنيها و"تزييت" أحوالهم المعيشية والاجتماعية والثقافية، إلا أن النظم العربية قاطبة -ممالك وجمهوريات وراثية- والتي هي في الأصل "مندوبيات تعمل

لحساب الخارج"، تبذل قصارى جهدها من أجل "تذليل" مواطنيها وتركيعهم، و"تربيط" الطرق والأبواب في وجوههم لأطول فترة زمنية ممكنة.

ويسعى العقل الغربي بما له من نظرة "متعددة" إلى تفضيل استخدام أساليب "الذكاء" و"الدهاء" وبذل "العرق" لمواجهة الأزمات التي تحيق بالمجتمع، بينما نجد أن العقل العربي الحديث "المتمدد" أو "المتبدد" يركن عادة للجمود، ويواجه الأزمات عادة بصواريخ "الدعاء" تارة، أو إسالة "الدماء" تارة أخرى، فيما تصبح النتيجة دائماً هي "العرق" كبديل عن عدم بذل المزيد من "العرق".

ولأن الغرب تحكمه نظم ديمقراطية لا تتحاز لفئة دون الأخرى، فهم حريصون دوماً على إعادة رسم "المسار" الديمقراطي كلما حاد عن جادة الطريق، بما يحفظ للناس أرواحهم وحقوقهم وأموالهم، أما في عالمنا العربي فحكمانا لا يهتمون كثيراً بإصلاح "المسار"، ويرون أن إصلاح "المطار" أكثر نفعاً وفعالية، حيث يستقلون الطائرات ويهربون بالأموال للخارج متى أوشكت السفينة على الغرق.

والمدهش أن الإنسان العربي المحدث، وهو في الغالب يعاني من "أحادية" النظرة جراء عملية التجهيل المنظم التي تقودها أنظمة الاستبداد الحاكمة، لا يؤمن مطلقاً بحق الاختلاف؛ فكل من يخالفه الرأي إما "كافر" أو "عميل"، ومن يؤيده الرأي فهو قطعاً إما "كابر" -من الكبر والسمو- أو "معيل" -أي لديه أولاد أكثر يستحقون الرأفة- في حين أن الإنسان الغربي لا يضع مثل تلك الحسابات في ذهنه مطلقاً، لأنه يهتم دائماً بأن يكون "كادراً" من الكوادر الخلاقة في تخصصه.

## التيار القومي في مصر تحت الحصار

21 ديسمبر 2011

المتأمل للخارطة الفكرية في مصر الثورة سيكتشف بسهولة حجم الجور الذي يعانيه أصحاب خط الفكر القومي.

ورغم أن القاعدة الشعبية لمعتنقي الفكر القومي في مصر قاعدة عريضة، تضم فيمن تضم هذه الطبقات التي عادت إليها بشكل مباشر مردودات الحقبة الناصرية؛ كالفلاحين والعمال والصناع والطلاب وعدد لا بأس به من النخبة المثقفة، إلا أن أنصار القومية العربية تم تغييبهم عن عمد في وسائل الإعلام في زمن الثورة.

ولقد ساهم القوميون العرب في مصر بشكل فعال في إشعال أوار ثورة يناير المجيدة، وتصدروا مع غيرهم من التيارات الفكرية المشهد الثوري من أجل إزاحة نظام مبارك الاستبدادي، وبذلوا على قدم وساق مع غيرهم الدم من أجل الخلاص، إلا أن خطاباً إعلامياً منظماً لافتاً للنظر راح يقصدهم تماماً من المشهد السياسي.

قسم الخطاب الإعلامي المغرض تيارات الفكر في مصر إلى قسمين عريضين: إما إسلامياً وإما ليبرالياً، وهو تقسيم خاطئ لكونه وضع جميع التفاح في سلة واحدة رغم التباين الشديد في الرؤى. بل إن هذا الخطاب راح يزعم، بل ينكر بهذا التقسيم وجود القوميون أساساً، رغم أنهم يشكلون الطريق الثالث بين هذا وذاك، ويشاطرون الإسلاميين قسماً كبيراً من ثوابتهم ولكنهم يمزجون رؤاهم بنكهة خليط من التيار اليساري -خاصة فيما يتعلق بفكرة العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروات تارة- ومع التيارات الليبرالية فيما يتعلق بالحرية والمسئولة تارة أخرى. ومن المثير للعجب أن التيارات اليسارية والاشتراكية بجانب القومية وضعت عن طريق الخطأ في سلة الليبرالية رغم التعارض الكبير معها.

لقد ضرب نظام مبارك حصاراً إعلامياً صارماً ضد أنصار الفكر الإسلامي والفكر القومي على حد سواء، وضيق عليهم المنابر الإعلامية، وقد تبدلت تلك الصورة عقب ثورة يناير حيث خرج الإسلاميون من دائرة الحصار المفروض عليهم جزئياً فيما بقي القوميون داخلها. وكما اخترقت أجهزة أمن مبارك كافة القوى السياسية المصرية على تنوعها، اخترقت فيما بينها التيارين القومي والناصري من جانب، والتيار الإسلامي من جانب آخر.

وفي هذا الصدد، راح جهاز أمن مبارك يزوج بعناصره بينهما، بل ويخلق من بينهما زعامات ومرجعيات وأحزاباً، من فرط تواطئها وهشاشتها وعدم صعودها لسقف التوقعات والطموحات المرجوة منها انفض الناس عنها واعتبروها أكبر طعنة وجهت إلى هذين التيارين.

ويأمل القوميون في مصر وهم على أعتاب مرحلة جديدة من الخلاص الوطني، أن تكون تلك المرحلة نموذجاً ديمقراطياً بحق؛ لا تُغلق فيه صحيفة، ولا يُحجب فيه قلم، ولا يُقصى فيه صاحب رأي بسبب رأيه، خاصة أن الجاني حينئذ سيكون هو المجني عليه سابقاً، ولا يصح أخلاقياً أن يُجلد الضحية بذات السوط الذي جلده به الجلادون الغابرون.

وليتذكر الإسلاميون على اختلاف مشاربهم أن التيار القومي المصري وقف مدافعاً بشدة ضد إقصائهم وراح يساند قضية مظلوميتهم. ويجب أن يتذكر رفاقنا من الإسلاميين أن مهلكة التاريخ الحقيقية في لعبة تبادل الأدوار وعمليات الكر والفر؛ وذلك لأن كل انتصار يعقبه انكسار، وكل قوة يعقبها ضعف، ولولا هذا وذاك لبقى المنتصر الأول منذ بدء الخليقة منتصراً حتى الآن.

## لا أحس جدّي.. ولا نفرتيتي جدتي

21 ديسمبر 2021

أنا مصري أعيش في القرن الحادي والعشرين بعد الميلاد، ولا أشعر أبداً بأن أحس جدّي ولا نفرتيتي جدتي، ولا أشعر بأن تلك القبور والمعالم لها أي قداسة في قلبي.

لكني -مع ذلك- أعتز بها أيضاً كما يعتز الأمريكي بتاريخ بلاده وما تركه الهنود الحمر عليها من آثار، مع أنهم ليسوا أجداداً له، وكما يعتز الإسباني ببقايا التاريخ العربي في الأندلس مع أنهم ليسوا أجداده أيضاً، وكما يعتز الأتراك ببقايا آثار الدولة البيزنطية.

وأقر بأنني إذا نطقت اللغة الهيروغليفية، فلن أنطقها إلا على سبيل التندرّ والمزاح، أو من قبيل المتوارثات الشفاهية؛ مثلها مثل مفردات كثيرة ذرتها علينا رياح تعدد الثقافات التي تزاومت على هذا البلد، دون أن تؤثر على ثقافته النهائية المستقرة: **العروبة والإسلام**.

إنها حركة التاريخ التي لا يريد البعض أن يؤمن بها لغرض في القلوب، فيتباكون بصوت عالٍ على أننا نعيش بهوية مزورة، ولغة ليست لغتنا، وثقافة ليست ثقافتنا! وبغض النظر عن كذب هذا الادعاء، فالحقيقة أن من يدعي ذلك هو أيضاً لا يمثل الفراعنة وليس ابناً لهم، ولكنه يريد الانتقام من الثقافة الحالية والتشويش عليها.

من يفعل ذلك يبتدع بدعة لم يأت بها أحد من قبل ودون حاجة إليها؛ فلم نسمع -مثلاً- في الأمم الأخرى أن هناك من يسعى لإحياء البابلية أو الآشورية أو الفينيقية أو الأمورية في أوطانها القديمة. وإذا فتحنا الباب لإحياء الماضي في مصر، فإننا -حتماً- يتوجب علينا إحياء الثقافات البطلمية، واليونانية، والرومانية، والبيزنطية، والصومالية، والحبشية، وحتى الهكسوسية؛ فهذه الحضارات تعاقبت على حكم مصر لآلاف السنين بشكل متصل أكبر مما نعرفه عن الحضارة الفرعونية ذاتها.

وبالطبع، ما ينطبق عليها جميعاً ينطبق أيضاً على الفتح الإسلامي واللغة العربية، وهي حالة مستقرة منذ ما يقرب من 1400 سنة في هذا البلد.

وهم «الأمة المصرية»

منذ عقود، تملو بعض الأصوات وتصخب ناهشة في هوية البلاد، وتسعى جاهدة لإحداث شرخ يفصل بين هذه الثقافة وهذا الوطن، ثم سرعان ما تخفت وتموت حينما لا تجد صدى الصوت الذي يطيل عمرها.

بدءاً من دعاية "الأمة المصرية" التي وجدت بيئة خصبة لها بعد اتفاقات كامب ديفيد وما أحدثته من قطيعة عربية لنظام السادات، وصولاً إلى تلك الكتابات المتناثرة التي بدأت تملأ مجدداً في بعض الصحف التي تحاول تعميق هذا الشرخ وبت روح الصدع فيه.

فبعد معاهدة السلام، وجد السادات نفسه وحيداً منبوذاً عربياً، فحاول الخروج من هذه العزلة بتبرير ما حدث وطرح أطروحة "الأمة المصرية" المنعزلة، وكان هدفه حينئذٍ سياسياً بحتاً يهدف إلى هدم هوية البلاد المستقرة. لكنه فوجئ -كما فوجئ الجميع- بقفز بعض الكتاب والمتقنين كـ «توفيق الحكيم» قفزة كبيرة لنفي عروبة مصر؛ وهنا ثارت ثائرة المثقفين من مختلف التيارات، وراحوا يفتنون تلك المزاعم ويقتلعونها في المهدي.

ثم مرت البلاد بمحاولات، أحياناً فردية وأخرى منظمة، تارة في صورة أحزاب أو جمعيات تدعو إلى الفرعونية، وتارة للتقليل من شأن اللغة العربية؛ فأنشأ بعضهم صحفاً مادتها الأساسية اللهجة العامية -بما فيها من انعدام للقواعد وتوافر السوقية والابتذال- بهدف تحقير لغة القرآن، لكن المجتمع لفظهم سريعاً وفشلت التجربة.

ومؤخراً، وجدنا من يصف الفتح العربي لمصر بأنه كان "احتلالاً"، داعياً إلى إحياء اللغة الهيروغليفية، تماماً كما فعل الدكتور وسيم السيسي في مقالاته المتعددة، أو كما جاء في أطروحته بجريدة «المصري اليوم». ونحن هنا لا نهاجم الأشخاص، فلهم الحق في التعبير عن آرائهم، كما أن للآخرين الحق في انتقاد توجهاتهم والرد عليها؛ تماماً كما ننتقد مزاعم الدكتور زاهي حواس التي ردها في محاضرة لطلاب جامعة القاهرة عام 2019 وقال فيها: «نحن نتكلم اللغة العربية لكننا لسنا عرباً، ونقول إننا في أفريقيا لكننا لسنا أفارقة، نحن شعب إلى الوقت الحالي له شكل خاص وطبيعة خاصة تابعة من 5 آلاف عام».

### العروبة: ثقافة لا نسب

رغم وجود عشرات الملايين من المصريين الذين ما زالوا يحتفظون بتسلسل تاريخهم العربي وأنسابهم وقبائلهم العربية، فإن الواقع المعرفي يقول إن العروبة ليست مجرد انتساب عرقي بل هي ثقافة ولسان؛ فكل من دان بالإسلام وتثقف بثقافته وتحدث بلغة قرآنه في تعاملاته اليومية فهو في الواقع عربي.

ونقول في هذا السياق كما قال الزعيم الوطني القبطي مكرم عبيد -الذي كان يحفظ القرآن الكريم- فكان يردد دائماً: «أنا مسيحي ديناً، ومسلم وطنياً». بلا شك، ستفشل كل محاولات تغيير الهوية العربية لمصر، كما فشلت في أعتى الحقب الاستعمارية السابقة.

## التمصير والتعريب.. وجهان لوطن واحد

25 سبتمبر 2023

من أخطر الطعنات التي يمكن أن تُطعن بها أي أمة هي تلك التي تستهدف هويتها أو التي تغذي الصراعات العرقية والمذهبية داخلها، وأخشى أن تطال هذه الطعنات الغادرة مصرنا الحبيبة؛ نظراً إلى وجود الكثير من الشواهد لتحركات يد عابثة في هوية هذا البلد العربي المستقرة منذ أكثر من ألف عام.

وتتمثل هذه الشواهد في إهدار اللغة العربية في مدارسها، وتحول الغالبية القصوى منها إلى مدارس تدرس كل المناهج بلغات أجنبية، وامتد الأمر ليشمل لافتات المحال والشركات، وإرشادات الطرق والمرور، وأسماء المنتجات والأبراج والأحياء الجديدة وغيرها.

يحدث هذا بشكل تدريجي ومتسارع منذ عدة سنوات، وزاد عليه مؤخراً الإهمال الواضح لبعض الآثار الإسلامية والعربية، وهدم المقابر والقصور التاريخية في منطقة وسط القاهرة والعديد من بقاع مصر، بما تحمله من تراث عربي وإسلامي نادر يشي بالكثير من حقب هذا البلد التي تشكلت فيها هويته الحالية؛ وبدا الأمر متناسقاً حتى وصلنا إلى مرحلة نشاط "ذباب إلكتروني" على وسائل التواصل الاجتماعي يروج بشكل متناغم لـ «فرعونية مصر» مقابل إنكار عروبتها.

يستغل هذا الذباب الإلكتروني حالة الانهيار المعرفي والثقافي التي يعيشها كثير من الشباب لنشر دعوته الواهية، وهي تلك الحالة التي تم تصنيعها على مدى عقود بشكل متعمد لاستخدامها في أوقات الانكسار، من أجل تحقيق ما عجز الكارهون لمصر عن تحقيقه عبر مئات السنين.

### سترات الشباب

«أنا مصري.. مش عربي»؛ شعار مطبوع على السترات التي يرتديها بعض الشباب، وخطورته تكمن في أنه يصنع تضارباً وهمياً بين أن يكون المرء مصرياً وأن يكون عربياً في نفس الوقت، وهو تضارب تدحضه ثوابت التاريخ ومعلومات السكان والجغرافيا السياسية.

ورغم أن التيار السائد هو كتابة كل شيء بالإنجليزية -وكأننا في دولة غربية- في بلد يحمل لفظ «العربية» ضمن اسمه الرسمي، نجد أن هذا الشعار المريب مكتوب باللغة العربية بأشكال مبهجة واحترافية؛ مما يعني أنه يستهدف أولئك الذين لم يتح لهم تعلم شيء غير العربية، مما يؤكد سوء النية والمقصد.

وما إن تصدر "الوسم" الخاص بهذا الشعار مواقع التواصل بعدد قليل من التغريدات، حتى راحت وسائل الإعلام العالمية تلقي الضوء عليه بوصفه مطلباً يعبر عن رغبة المصريين، رغم أن كافة التغريدات التي كُتبت تحته كانت تسخر منه أو تهاجمه.

## بوقة صهر تاريخية

هوية مصر أمر تم حسمه اجتماعياً وثقافياً على مدار عدة قرون، والحديث فيه مجدداً مع الأمل في تغييره لهو ضرب من الخيال لا يمكن أن يحدث متى أدرك الناس أبعاد المعركة؛ لأنه يمس معتقداتهم وتراثهم.

مرّ من هنا الكثيرون: الفراعنة، والرومان، والفرس، والإغريق، واليونانيون، والهكسوس، والأحباش، والصوماليون، والسودانيون، والمماليك، والأوزبك، والأذريون، والأتراك، والأكراد، والنوبة، واستقر الأمر على مدار سنوات طويلة بأن دانّت أغلبية هذا الشعب بالإسلام وتعرّبت بثقافته ولسانها. والحقيقة أن مثل مصر كمثل **بوقة صهر**؛ لأنها تذيب في قدرها القوميات والأعراق والأجناس لتخلق لنا هذا المزيج الثقافي والفكري المتدثر برداء العروبة والإسلام، وهو الرداء الذي لا يمنع في ذات الوقت تنوع الاعتقاد والثقافات المحلية.

لم يكن هناك إجبار للأقليات على التعرّب؛ بدليل أنه في ظل الحملة الفرنسية والاحتلال الإنجليزي لمصر، وجدنا المواطن المسيحي يتحدث العربية، ويؤدي طقوسه الكنسية بالعربية، ويمارس ثقافته الاجتماعية العربية دون أن يجبره أحد على ذلك. وفي المقابل، وجدنا مستشرقين غربيين يحاربون الهوية السائدة لدى شعوبنا في صورة دعوات إلى الشعوبية، في حين نجد الغرب -على تعدد أعراق ولغات دوله- يؤمن بالدولة القومية الواحدة واللغة السائدة.

## الخطر الإقليمي

وتتشابه تلك الحملة التي تحاول إيهام البسطاء بوطنيتها وسعيها لـ «تمصير مصر»، مع حملة أخرى قديمة كانت أوسع نطاقاً وتأثيراً على امتداد رقعة الوطن العربي، حاول صانعوها الفصل بين العروبة والإسلام وجعلهما خصمين، رغم أنهما وجهان لعملة واحدة.

أما خطورة تلك الدعوات الخبيثة الرامية إلى التخلص من عروبة مصر، فهي في أنها قد تفتح أبواب الجحيم والخراب والتمزق بين أنسجة المجتمع الواحد، ليس في مصر وحدها بل في دول المغرب العربي وشمال إفريقيا وسوريا والعراق ولبنان؛ فيظهر من يقول "أنا آشوري لست عربياً" و"أنا سرياني لست عربياً" و"أنا كردي لست عربياً"، مع أن العربية لم تمخ لغاتهم التاريخية ولكنهم هم طواعية وبحكم الانصهار الحضاري حدثوا العالم بالعربية بعدما صارت لغة عالمية.

وهو ما يؤكد وجود المخطط الهادف إلى انفراط عقد هذه الدول في صدامات هوياتية قد تدوم عقوداً.

وقديماً اتفق النسّابون والمؤرخون على أن العروبة ليست جنساً نقياً بل هي لغة ولسان؛ فمن يتحدثها فهو عربي. وقبول القوميات الأخرى في وطننا العربي قديماً لهذا المبدأ يعد برهاناً على الحكمة والعدالة، ويؤكد أن ما حدث كان فتحاً حضارياً لا استعماراً استيطانياً.

## ليتها معركة حول هوية كليوباترا فقط!

29 مايو 2022

ما إن أعلنت منصة «نتفليكس» الرقمية اعترامها عرض سلسلة أفلام وثائقية عن كليوباترا في العاشر من مايو/ أيار الماضي، وظهرت بطله العمل بدور سيدة سمراء، حتى هاج وماج البعض، ووجدوها فرصة مواتية لخوض غمار معركة ضارية حول حقيقة لون بشرة كليوباترا.

وتصاعدت الأحداث فوجدنا قنوات إعلامية تتحدث بالساعات عن المؤامرة التي تهدف لتشويه تاريخ مصر، حتى وصل الأمر إلى بيانات من المجلس الأعلى للآثار ومجلس الوزراء -الذي ترك كل مشاغله والهموم التي يزرع تحت نيرها البلاد والعباد- ليصدر بياناً يخلص فيه إلى أن كليوباترا كانت شقراء! ووصل الأمر إلى مدى بعيد في حد اللامعقول فصارت بشرتها مثار حديث فيما يسمى بـ «الحوار الوطني!»

ولاستكمال مشاهد العيب، فوجئنا بأبناء رسمية عن نية «مصر» -متمثلة في القناة الوثائقية المملوكة للشركة المتحدة- إنتاج فيلم وثائقي رداً على فيلم نتفليكس! كما ردد الكثيرون من مرتادي الخوض في عباب الوطنية الزائفة -دون اكتراث بوقوعهم في فخ العنصرية- أن ظهور هذه الملكة ببشرة سمراء لهو انتقاص منها ومن مصر.

وخانت هؤلاء القوم حصيلتهم الثقافية في معرفتهم أن كليوباترا لم تكن مصرية ولا تعبر عن مصر، إن لم تكن هي بأصلها البطلمي مجرد محطة من محطات الانكسار في تاريخ هذا البلد الذي تم استعمارهم من عدة قوى خارجية في معظم تاريخه المعروف. وتجاهلوا أنها من هؤلاء الغزاة الذين تعالوا على المصريين وساموهم سوء العذاب دون أن يقدموا لهم المساواة والعدالة، ولا أي طرح فكري سوى الاستعباد التام، وأن نهايتها لم تكن على يد مصري بل كانت على يد غاز روماني آخر أجبرها على الانتحار في إطار الصراع بين المستعمرين.

وخانهم وعيهم «الجيوبوليتيكي» في أن غالبية سكان مصر هم من نوي البشرة السمراء أو القمحية، إما لأنهم أفارقة بجغرافيتهم وإما لأنهم عرب، وأن «سمرة الوجه» لا تنتقص من قيمتهم ولا من سموهم، فهم أصلاً ينتمون لقارتهم السمراء.

### وجاهة المعركة المصنوعة

يحاول البعض إكساب المعركة «الوهمية» بعداً ثقافياً ونضالياً، فيقولون إنهم يتصدون لمؤامرة كبيرة يتعرض لها تاريخنا من قبل حركة تسمى «المركزية الأفريقية» أو (الأفروسنتريك)، وأنها تسعى لسرقة تاريخنا. مع أن كل ما هو متوافر عن تلك الحركة أنها تسعى للتصدي لتهميش دور أفريقيا الحضاري في العالم، ونفي الاعتقاد الاستعماري السائد بكونها تمثل عبئاً على الحضارة الإنسانية.

ومع اعتقادي أنها كيان هلامي، أو كيان هش قائم فعلياً تحرك بعض مؤسسيه أهداف إنسانية وثقافية، فإن ادعاءها أن بشرة الملكة سمراء أو بيضاء لا يمثل أبداً مؤامرة على تاريخنا المصري؛ وذلك لأن مصر هي فعلاً دولة أفريقية الجغرافياً، ومواطنوها أفارقة. ومن يعيش في هذه القارة طويلاً -أيّاً كانت بشرة أجداده قبل القدوم إليها- فستتحول سحنته إلى السمرة بفعل طبيعة المناخ والشمس الإفريقية.

## صراع هويتي ممتد

كل ما أخشاه أن يكون فتح موضوع «لون بشرة كليوباترا» -وما كسبه من زخم إعلامي هائل عبر وسائل التواصل الاجتماعي- ليس مقصوداً لذاته ولا بقصد الدفاع عن مصر أو حتى كليوباترا، ولكنه حلقة من سلسلة محاولات خبيثة لإثارة جدال خطير في المجتمع حول هوية مصر المستقرة عربياً منذ الفتح الإسلامي، يليه الانتقال إلى حلقة الصراع التقليدي حول فرعونية وعروبة مصر، وهل جاء العرب إلى مصر فاتحين أم غزاة؟

للأسف، ذلك هو الاحتمال الأكثر ترجيحاً في نظري؛ فالحرب على الهوية العربية والإسلامية في أوجها، وها هي اللغة العربية تنحسر بشكل واضح في لافتات الشوارع وإعلانات التلفاز، والنوادي والبنوك، وحتى في ألسنة الناس. وبينما تنقص أعداد المدارس والجامعات التي تعتمد العربية بشكل ملحوظ، ويتم تحجيم الأزهر وتصعيب مناهجه، تتضاعف في البلاد مدارس اللغات بكل أنواعها، ويدرس الطلاب المصريون -وحتى تلاميذ رياض الأطفال- المناهج بالإنجليزية، وينحصر تدريس اللغة العربية في مادتها فقط، في حين وُضعت مناهجها بشكل ينفر الطلاب من تعلمها.

ورغم أنني لست ضد تدريس «الهيروغليفية» كنشاط ثقافي وتاريخي، فإن إقرارها لتلاميذ التعليم الأساسي في هذه الأجواء التي تعاني فيها اللغة العربية بشدة، يلقي ظلالاً من الريبة على القرار. خصوصاً أن منصة عالمية شهيرة كـ «ويكيبيديا» قامت باعتماد ما سمّته «اللغة المصرية الحديثة» كلغة تدوين مستقلة عليها، وهي تتضمن مصطلحات وألفاظاً باللهجة الدارجة، مما يمكن أخذه قرينة على أن هناك ما يتم التخطيط له خارجياً لعزل هذا البلد عن محيطه.

## وقائع تاريخية تتكرر

والواقع يقول إن ضجة كليوباترا تتشابه إلى حد بعيد مع الضوضاء التي واجهوا بها أحد المسلسلات التاريخية، وذلك بإنتاجهم أعمالاً درامية تشيطن الرموز الإسلامية وتضفي الاحترام على قوى أخرى، وتسويق الصراع على أنه معركة استقلال وطني بمفهومه الحديث، مع أن الأطراف المتقاتلة تاريخياً لم تكن تنظر للأمر من هذا المنظور.

كما أن محاولات نفي عروبة مصر أو «فرعنتها» في مواجهة محيطها ليست جديدة، فهي مستمرة منذ عقود، وكانت إحدى محطاتها الحديثة في بعض التوجهات السياسية في السبعينيات لتبرير الانعزال عن المحيط العربي آنذاك. لكن الفكرة تراجعت لأن النخب السياسية والثقافية في ذلك الوقت كانت تملك شيئاً من القدرة والوعي لتمزيق ذلك المشروع الخطير.

وأظن أن هناك من ينبش الآن خلف الرماد لكي يتم نزع توصيف «العربية» من المسمى الرسمي لـ «جمهورية مصر العربية». إن الألاعيب التي تُمارس لنفي عروبة مصر كثيرة ولا تتوقف، وإذا أغمضنا أعيننا فلا يُستبعد أن نكون أمام أندلس جديدة.

## ما الذي يضير ساويرس من "مصر العربية"؟

9 مارس 2025

منذ عدة سنوات حذرت في مقال لي بعنوان «ليتها معركة حول هوية كليبواترا فقط» من أنه قد تكون هناك توجهات أو "أمنيات" لدى البعض لإلغاء وصف «العربية» من المسمى الرسمي لجمهورية مصر العربية، وهو ما دعا إليه صراحة رجل الأعمال نجيب ساويرس في تدوينات له مؤخراً على منصة «إكس» (تويتر سابقاً).

وقلت نصاً في ذلك المقال: «أظن أن هناك من ينبش لأن يتم نزع توصيف "العربية" من المسمى الرسمي لـ "جمهورية مصر العربية"، والألا عيب التي تمارس لنفي عروبة مصر كثيرة ولا تتوقف، وإذا أغمضنا أعيننا فلا يُستبعد أن نكون أمام أندلس جديدة». انتهى الاقتباس.

ولو تتبعنا الخط المستقيم لتغريب التعليم والدراما، وإهمال اللغة العربية في مكاتبات وإعلانات ولوحات الشركات والمحال ولوحات الشوارع، وما ترافق مع ذلك طوال العقود الماضية من هدم وتهاون وإهدار للعديد من الآثار العربية والإسلامية، مقارنة بما يقابلها من تمجيد مفرط ومسيس للآثار الفرعونية واليونانية والبطلمية؛ لكان ذلك كفيلاً وحده بتعميق هذا الاعتقاد.

### واقعة ساويرس

حاولت أن أجد مبرراً واحداً لما قاله ملياردير كالمهندس نجيب ساويرس -وهو رجل يدرك جيداً خطورة ما يقول ومغزاه ومردوده- واعتقدت لبرهة أنه الفراغ، لكنني مع ذلك لا أظن أن شخصاً مثله تمتد شركاته وعلاقاته في العديد من دول العالم لاسيما تلك التي شهدت تحولات سياسية كبرى، لديه وقت فراغ إلى هذا الحد.

ما الذي يضير رجل الأعمال الكبير في اسم الدولة؟ بحثت عن أي مبرر يعود على مصر وشعبها بأي نفع من هذا المطلب الغريب فلم أجده؛ فالمواطن المصري الآن لا يتطلع إلى تغيير مسمى دولته ولا يخالجه هذا المطلب في أكثر أوقاته فراغاً، ولكنه يتطلع إلى الحرية، والديمقراطية، والكرامة، ويتطلع إلى مجابهة غول الغلاء والفقر والمرض وانهايار الخدمات اليومية. وهذا ما كان يجب على المهندس ساويرس أن يتحدث عنه إن كان يعبر عن نبض المجتمع، ليكون بذلك قد اقترب بشدة من معاناة الشعب وطموحاته بدلاً من التحليق في فضاء الأطروحات النخبوية المنفردة.

وليتها كانت مجرد تغريدة عابرة، ولكنه شغل وقته الثمين للبحث داخل المنصة عن وجهات نظر توافق مطلبه وراح يعيد نشرها، وسط انقسام كبير في التعليقات كان معظمها رافضاً للمقترح ومستكراً له.

### دعوات «الفرعنة»

إن دعاة التغريب لم يضيعوا من قبل أي فرصة للطعن في عروبة مصر وسعيهم لحرفها إلى أي هوية أخرى غير هويتها العربية المستقرة منذ 14 قرناً؛ تارة بدعوات الفرعنة السياسية التي أطلقت في السبعينيات لتبرير الانعزال عن المحيط العربي عقب كامب ديفيد، وتارة عبر التمهيد الثقافي كإدخال رموز الكتابة القديمة في مناهج رياض الأطفال بشكل لا يتناسب مع استيعاب الصغار لأساسيات لغتهم القومية.

بل إن الضجة المفتعلة التي أثيرت قبل عامين حول فيلم كليوباترا واحتجاج المؤسسات الرسمية عليه بدعوى أن بشرتها لا تتناسب مع بشرة الفراعنة، مع أن كليوباترا ليست فرعونية ولا مصرية أصلاً بل مقدونية بطلمية، كان الهدف الضمني منها هو مجرد إثارة لغط الهوية وإعادة تدويره إعلامياً.

وقد سبق ذلك لغط متكرر حول الوجود العربي في مصر أهو فتح أم غزو؟ حيث وجدنا كتاباً ومحللين يصفونه بالاحتلال ويدعون صراحة إلى فرعنة مصر.

والحقيقة أن دعوات اعتبار العودة إلى ما قبل الفتح العربي عودة إلى "الأصل" هي التديليس ذاته؛ فالرومان والبيزنطيون الذين كانوا يحكمون مصر قبل الفتح ليسوا هم الفراعنة، وبالتالي فدعوات فرعنة مصر اليوم تشبه تماماً دعوات تسليم الولايات المتحدة أو كندا أو أستراليا بالكامل للهنود الحمر ونفي الثقافة المعاصرة عنها؛ فضلاً عن سؤال موضوعي: أين نجد الفراعنة كعرق نقي اليوم في مصر بعد كل هذا الانصهار البشري؟

### دعوات الحداثة الزائفة

حينما تعذرت محاولات الفرعنة لأسباب تاريخية وعلمية، تحول دعائها مباشرة إلى تجريح اللغة العربية بوصفها -حسب زعمهم- لغة لا تناسب علوم العصر، وطالبوا بالتوسع المطلق في تعليم اللغات الأجنبية؛ وهو ما يؤكد أن الهم الأساسي ليس إحياء التاريخ القديم بل محو عروبة مصر، وأهم مظاهرها: اللغة العربية، ثم المسمى الرسمي للدولة.

هم بهذه الدعوات كمن لم يعجبه شكل باب منزله، فباع المنزل كله بدلاً من أن يرمم الباب! حيث كان يمكنهم بدلاً من استبدال لغة البلاد لتناسب العلوم الجديدة، أن يقوموا بتعريب العلوم والنهوض بها بلغتنا القومية، تماماً كما فعلت الصين واليابان وجميع دول العالم الصاعدة التي لم تتخل عن لغاتها الوطنية لتلحق بركب التطور. هذا فضلاً عن أنه ليس شرطاً أبداً أن نكون دولة

متطورة بمجرد التحدث بالإنجليزية أو الفرنسية؛ فمعظم الدول التي اتخذت من لغات المستعمر لغة رسمية لها في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية ما زالت تعاني من التخلف والتبعية.

نأمل ألا يكون الاهتمام المفاجئ من المهندس ساويرس بهذا الأمر له ما بعده.. مع اليقين بأنه حتماً سيكون.

## لغتنا القومية .. التشخيص والعلاج

18 نوفمبر 2009

لا شك في أنه ما من أمةٍ أهملت لغتها القومية إلا انقرضت؛ هذا هو ما يؤكد التاريخ الذي تعد دراسته بمثابة قراءة مكثفة للمستقبل، ولنا في أمم خلت من قبلنا العظة والعبرة. ويكفي أن نشير إلى أن العبرانيين حينما أقاموا دولتهم على جزء غالٍ من الأرض العربية، بعدما أبادوا سكانه وشرّدوا الباقين منهم، شرعوا في تجريم الحديث بغير اللغة العبرية (التي كانت قد انقرضت فعلاً في محافلهم الرسمية)، رغم أن جميع سكان هذا الكيان اللقيط هم شتات من كل بقاع الأرض، يتحدثون بلغات الدول التي وفدوا منها، وصلتهم بالعبرية انقطعت تماماً.

أقول ذلك وقد لاحظتُ - وأنتم معي لا شك - حجم الاهتراء الذي أصاب لغة الضاد في بلدانها الأصلية. وفي محاولة مني لمشاركتكم في تشخيص الداء - بما يمكننا من كتابة تذكرة للعلاج الناجع لهذه الأزمة شديدة الحساسية والأهمية - سنحدد مكونات المرض، الذي يتمثل في وجهة نظري في ثلوث: «اللهجة العامية، والتعليم الأجنبي، والانحطاط السياسي والثقافي.»

### العامية .. مسموعة ومكتوبة!!

والحقيقة أنه لا خطر كبيراً من اللهجة العامية طالما ظلت ثقافة سمعية وكلامية فقط، لكن الخطر المستجد فيها هو تحولها إلى ثقافة مكتوبة تتداولها الأوساط الشعبية والرسمية أحياناً، حيث صارت تزوّج لها وسائل إعلام الدولة نفسها، مما أضفى عليها هيبه ومشروعية، وهو الأمر الذي عمّق من حجم المأساة؛ وذلك بعدما عمدت العديد من الأوساط الثقافية إلى استخدامها بحجة واهية تستند إلى كونها تتيح التواصل بشكل جيد مع البسطاء. وبالطبع، فإن ذلك مجافٍ للحقيقة؛ لأن مفردات العامية هي نتاج فردي وليس نتاجاً عقلياً جمعياً منظماً كما هو الحال في الفصحى، ولأن دور الثقافة والتعليم والإعلام أساساً هو النهوض بوعي الناس وليس الهبوط إليهم.

ومع انتشار ظاهرة «الشات» في الفضائيات المختلفة والقنوات التلفزيونية التي تملكها الدول - والتي يقوم من خلالها شباب لا يجيدون الكتابة والقراءة بشكل معقول بإرسال رسائل متنوعة غير مضبوطة إملائياً وتنشرها تلك القنوات - يحمل الأمر في طياته خطراً كبيراً على ثقافة المتلقي، الذي يعتبر أن التلفزيون وسيلة للتثقيف والتعليم وليس العكس.

واللافت للنظر أن التلفزيون المصري شرع في عملية تطوير صاحبها حملة دعائية كبيرة، وإذ بنا نكتشف أنه بدّل كلمة «النيل» في قنوات النيل المتخصصة إلى «نايل»، وغير اسم قناة «النيل للرياضة» إلى «نايل سبورت»، و«النيل للمنوعات» إلى «نايل لايف»، واستحدث قناة «نايل كوميدي»، بل إن إذاعة «صوت مصر» التي تعبر عن لسان مصر وثقافتها تحولت إلى «راديو مصر»! ناهيك عن عشرات البرامج التافهة والعقيمة والمسقة التي تحمل أسماء أجنبية أو غارقة في العامية!!

وقد حكمت لي إحدى الناشطات والباحثات في العلوم الاجتماعية والثقافية، أنه منذ أن استبدل أهل القاهرة نطق حرف «القاف» إلى «ألف» انحدرت ثقافة المصريين، وقالت ساخرة: لقد تحولت كلمة «حق» إلى «حأ» وهي لا معنى لها، وكلمة «صدق» إلى «صدء» (من الصدا)، وكلمة «قوة» إلى «أوة» وهكذا.. وبالتالي فقد فسدت معاني الكلمات وفسدت مدلولاتها على أرض الواقع، وافتقد الناس الصدق والحق والقانون والقوة.

ولعل ما حدث من تعليقات لبعض الدوائر الصهيونية على كلمات المؤدي الشعبي المصري شعبان عبد الرحيم -التي عبر فيها عن كراهيته لإسرائيل بلغة شعبية مبتذلة- كان الهدف منها أساساً هو الدعاية لهذا النوع من الأداء، الأمر الذي يكون له مردود سيئ على الثقافة في مصر.

### التعليم الأجنبي.. وقُتل الانتماء

وثاني أسباب المرض هو ذلك الزحف المريب للمدارس الأجنبية في العالم العربي، لاسيما في مصر، والتي لا تدرس اللغة العربية مطلقاً داخل أروقتها، بل تقوم بتجريم وتحريم الحديث بها. وفي إطار موازٍ، دخلت الدولة عبر مؤسساتها التعليمية العامة كداعم لهذه المؤامرة -بقصد أو بدون قصد- حينما شرعت في تعليم اللغات الأجنبية، لاسيما الإنجليزية والفرنسية، بجوار اللغة العربية إجبارياً للأطفال في مراحل التعليم الأساسي المبكرة التي تبدأ من رياض الأطفال وما بعدها، وهي الفترة التي يبدأ فيها الطفل تعلم الكلام والمحاكاة، والتي كان يجب أن يتم تركيز الجهود فيها لتعليمه لغة بلاده القومية؛ لكن عدم مراعاة ذلك من جانب القائمين على أمر التعليم في مصر جعله لا يجيد أيّاً من اللغتين: لا لغة بلاده القومية، ولا اللغة المفروضة عليه.

وقد أنتجت السياسات التعليمية الخاطئة أجيالاً من أنصاف وأرباع وأسداس المتعلمين في كل المجالات في مصر، كمن «رقص على السلم»، فلا احتفظ الإنسان العربي المصري بأصالته، ولا صار غربياً.

بالإضافة إلى أن التمادي في فتح الباب على مصراعيه للتعليم الأجنبي الخاص والرسمي في مصر، خلق هو الآخر أجيالاً من الشباب الذي يفتقر للولاء والانتماء بعدما تشبع بثقافة الغرب. وهنا يعني أن نذكر بأنه لا يفيد مصر أن تنجب علماء ذوي صيت عالمي، ولكن ما يفيدها أن يكون هؤلاء العلماء يدينون بالولاء لها وليس لأعدائها.

### الانحطاط السياسي والثقافي

هل يصدق أيُّ منا أن للأمية فائدة؟ فحينما كانت البلدان العربية مستعمرة غربياً، سعى الاستعمار إلى تدمير الثقافة أو اللغة العربية وإحلال ثقافته محلها (راجع مشروع دانلوب التعليمي البريطاني في مصر عام 1910)، ولكن حال دون مراده ذلك ما صدمه من أمية الناس والفقر المدقع الذي يشغلهم، ولذلك حوّل مخططه إلى دعم الثقافات المحلية في تلك البلدان على

حساب الفصحى، ولكن بعد انحساره شهد عالمنا العربي فترة مدّ قومي أصلح ما ترسب في أذهان الناس من أخطاء وخطايا.

والخطر المتمثل الآن ينحصر في أن نسبة الأمية في عالمنا العربي انحسرت بشكل كبير، وأن الحكومات العربية هي التي تتبنى العملية التعليمية وتصرف عليها المليارات من الدولارات سنوياً، لكن هذه العملية تسير في إطار عكسي، لا تدعم الثقافة القومية ولكن تهدمها.

وقد ترسخ في أذهان أهل الثراء والأعمال والإعلام والثقافة والسياسة والحكم -بالإضافة إلى أذهان العامة- أنه كلما زاد المرء من استخدام مفردات أجنبية في حديثه مع الناس، كلما أعطى لهم إيحاً بأنه من أهل الرفاهية والثقافة والطبقات الاجتماعية العليا!!

### روشة العمل: تذكرة علاج

هذه هي أهم أسباب الداء، أما عن أطروحاتي للعلاج.. والتي أدعوكم لمناقشتها وإجبار الحكومات على وضع تشريعات صارمة لتنفيذها من أجل حماية اللغة العربية من جانب، ولكي تبرئ تلك الحكومات ذمتها من مأساتها، فهي:

- الحد من انتشار مدارس التعليم الأجنبي، وجعل تعليم اللغة العربية مادة أساسية فيها، وألا يجتاز الطالب الامتحان سوى بالنجاح فيها بدرجة مرتفعة.
- منع تدريس اللغات الأجنبية في مراحل التعليم الأساسي في كل أنواع المدارس (الخاصة والعامة والأجنبية)، مع التركيز المكثف على تدريس اللغة العربية.
- تدريس مادتي التربية القومية والدينية (حسب الديانات المعترف بها) بالإضافة إلى مادة اللغة العربية في كافة أنواع المدارس.
- منع إنشاء قنوات أو إعداد برامج تلفزيونية أو إذاعية تحمل أسماء أجنبية أو عامية، فضلاً عن ضبط أسماء الإذاعات والقنوات نفسها.
- منع الكتابة باللهجة العامية أو كتابة الكلمة العربية بحروف أجنبية (الفرانكو) في كل وسائل الإعلام، ووضع حل لمسألة رسائل «الشات» في الفضائيات والقنوات المختلفة عبر إعادة صياغة الرسائل بالفصحى قبل بثها، وهو الأمر الذي سيكون له مردود تعليمي على المتلقي وعلى صاحب الرسالة نفسه.
- تفعيل القوانين الخاصة بمنع تعليق لافتات أو الكتابة على واجهات المحال التجارية والعيادات والمستشفيات، وكذلك المنتجات المختلفة وغيرها بأسماء أجنبية فقط، دون أن يقابلها الاسم باللغة العربية بشكل أكبر وأبرز، وهو المشروع الذي تبناه الدكتور أحمد الجويلي وزير التموين الأسبق في مصر، ولكن فجأة رأيناه يقدم استقالته.

## العربية.. أهانها الأعراب وأكرمها الأعراب

31 ديسمبر 2021

في الاجتماع السادس عشر للجنة الدولية الحكومية لصون التراث الثقافي غير المادي، المنعقد عبر الإنترنت، ضمت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة («يونسكو») الخط العربي إلى القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية.

ورغم أن الخبر يبدو ساراً -وهو فعلاً كذلك- فإنه جاء متأخراً كثيراً، خاصة إذا قورن الأمر بلغات وخطوط أخرى اعتنت بها اليونسكو ولم تكن أكثر انتشاراً من اللغة العربية، التي يوجد نحو ملياري شخص تقريباً في العالم يتحدثون بها ولو في صلواتهم.

واللغة العربية تستحق أكثر من ذلك؛ فهي من فرط تداولها بين الناس، جرى اعتمادها عام 1973 ضمن ست لغات رسمية للأمم المتحدة، بجوار الإنجليزية والإسبانية والفرنسية والروسية والصينية، ناهيك عن أنها لغة رسمية معتمدة في نحو 20 منظمة دولية أخرى. ومن حيث الأصل، فالعربية تندرج في عائلة اللغات السامية الوسطى، التي تضم الآرامية والأمهرية والكنعانية والعبرية والفينيقية.

### عناية الأعراب

ورغم أن الاعتناء باللغة العربية بدأ يتلاشى في موطنها الأصلي، فإن هناك أمماً أخرى قدّرت قيمة تلك اللغة واعتنت بها، منها كوريا الجنوبية التي اختارتها لغة أجنبية ثانية في البلاد بعد الإنجليزية، وتقرّر اجتياز امتحان فيها كشرط للالتحاق بالجامعة، كما أنها تُدرّس في 6 جامعات وطنية هناك.

وكذلك فعلت فرنسا وبلجيكا اللتان بدأتا اعتمادها في التعليم الثانوي والإعدادي ضمن لغات عدة أخرى. وهكذا في بولندا، حيث خصصت جامعة «كوبرنيكوس» بمدينة تورون قسماً خاصاً باللغة العربية، يختص بتدريس الأدب والثقافة العربية.

وأظهر تقرير للمعهد الإيطالي للدراسات الشرقية أن عدد طلاب اللغة العربية في البلاد ارتفع منذ العام 2001 بنسبة 250% عما كان عليه قبل ذلك الوقت. وأكدت مجلة (Science) المهتمة بالبحوث العلمية أن العربية ستشغل المرتبة الثالثة بين اللغات الأكثر انتشاراً بحلول العام 2050، بعد الصينية والهندية، وقبل الإنجليزية والإسبانية والفرنسية، وهي اللغات الأكثر انتشاراً الآن.

وأشارت المجلة العالمية إلى اتساع شرائح الراغبين في تعلّم العربية، وانتقالها من المستشرقين والمترجمين إلى جميع الشرائح المجتمعية، مثل الصحفيين والحقوقيين والمحامين والأطباء وغيرهم، وأن السبب في ذلك يرجع إلى تزايد أعداد من يعلنون إسلامهم حول العالم.

وخصّصت وزارة التعليم الأمريكية دعماً مالياً سخياً لتدريس اللغات الأجنبية المهمة وعلى رأسها اللغة العربية، وقدمت منحاً للراغبين بتعلّمها في مصر والأردن ولبنان وتونس، وصارت محطّ اهتمام العديد من الوزارات الأمريكية وليس فقط المراكز المتخصصة في الشرق الأوسط.

## تفوق العربية وثراؤها

وتمتاز اللغة العربية عن سائر اللغات بأنها تحتوي على حروف غير موجودة في أي لغة أخرى، مثل حرف «الضاد» الذي سُميت باسمه لتمييزها به، بجانب أنها لغة القرآن الكريم، أعظم الكتب التي يتناقلها البشر، ولا تجوز قراءته إلا بها.

كما تحتل اللغة العربية المركز الأول بين اللغات في عدد المفردات؛ إذ تبلغ نحو 12 مليوناً و303 آلاف كلمة دون تكرار، أي أكثر من 20 ضعفاً لعدد كلمات اللغة الإنجليزية التي لا تتجاوز 600 ألف كلمة، في حين أن اللغة الألمانية بها 5 ملايين و300 ألف كلمة، والكورية مليون و100 ألف كلمة، والفرنسية 150 ألف مفردة، و130 ألفاً للروسية، و122 ألفاً للصينية. وهذا المؤشر اللغوي يدل على ثراء تلك اللغة مقارنة بغيرها من اللغات.

ولك أن تتخيل أن العربية تمتلك بمفردها 16 ألف جذر لغوي، في حين أن اللغة اللاتينية (التي تنبثق منها معظم لغات أوروبا) تمتلك 700 جذر لغوي فقط! كما أن الحرف العربي تُكتب به العديد من لغات العالم الأخرى، منها الفارسية والكردية والأردية والملايوية، والتركية سابقاً.

## قداسة العربية ومكانتها

ناهيك عن القداسة التي أضافها القرآن إلى تلك اللغة، حيث كرّمها في مواضع عدّة، بقول الله تعالى:

- {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 195]
- {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [يوسف: 2]
- {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} [الزمر: 28]
- {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [فصلت: 3]

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل» (حديث حسن، صححه الألباني).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة بناء البيت: «... فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ فَنَزَلُوا، وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ... وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ...» (رواه البخاري).

كما ورد في أهميتها ما قاله عنها الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ فَإِنَّهَا تُثَبِّتُ الْعَقْلَ وَتَزِيدُ فِي الْمَرْوَةِ»، وما كتبه إلى أبي موسى الأشعري: «أما بعد، فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعرّبوا القرآن فإنه عربي».

وقال فيها الخليفة عبد الملك بن مروان: «أَصْلِحُوا أَلْسِنَتَكُمْ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ تَنُوبُهُ النَّائِبَةَ فَيَسْتَعِيرُ الثُّوبَ وَالِدَابَةَ وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَعِيرَ اللِّسَانَ، وَجَمَالَ الرَّجُلِ فَصَاحَتُهُ».

والخلاصة؛ أن لغتنا العظيمة هانت علينا.. فهنا في السنة الناس.

## لماذا نهدر تميزنا وبنافس على الذيل؟

23 أغسطس 2022

لا ندري ما السر وراء هذا السُّعار الذي يجتاح الحكومات العربية للتتكبر لهويتها عبر طمس اللغة العربية، والنزول بسنّ تعلّم اللغات الأجنبية إلى رياض الأطفال؟ وهو القرار الذي اتخذته وزير التعليم المصري الأسبق الدكتور طارق شوقي؛ في حين أن هذا السن هو ما يحتاج فيه الطفل إلى تعلّم الحروف الأولى من لغته القومية وإتقانها، وليس التشويش والإثقال عليه بتعلم لغات الآخرين.

يأتي هذا القرار ضمن جملة إجراءات سابقة اتخذها الوزير ذاته، بجعل اللغة الإنجليزية هي اللغة التي سيجري بها تعلم كافة المواد العلمية والإنسانية في جميع مراحل التعليم الابتدائي الرسمي.

ولا نعرف ما الداعي للسعي وراء التخلص من موروثاتنا الثقافية والحضارية التي نتميز بها، وتجعلنا محطاً لأنظار العالم الباحث عن التفرد والافتداء؟ وهو التفرد الذي نملك كل أدواته عبر الاعتناء بلغتنا العربية التي شرفها الله بالقرآن الكريم لتكون لغة وحيه، ومع ذلك نلقي بهذا الشرف أرضاً ونهروا لننضم إلى حشد لا يمكننا أبداً أن نكون فيه إلا في نهاية ذيله.

علماً بوجود عشرات الدراسات -قد نتطرق إليها في مرات أخرى- أجراها علماء مصريون وعرب وأجانب، تؤكد جميعها أن أداء الأطفال الذين يتعلمون لغة واحدة في الصغر كان أفضل من أداء ونتائج الأطفال الذين يتعلمون لغتين في آنٍ واحد؛ حيث يعاني الصغار في الحالة الثانية من مخاطر دينية، وثقافية، ولغوية، وعاطفية.

وهي النتائج التي يراها المصريون الآن عملياً في أرض الواقع جراء هذا الاضطراب التعليمي؛ حيث إن عوائد التحصيل العلمي منخفضة للغاية، وكانت محصلتها عدم تعلم الأطفال لا العربية ولا الإنجليزية.

### مبررات واهية

إن التعليل لأهمية تعلم اللغات الأوروبية -لاسيما الإنجليزية أو الفرنسية- بكونها لغات العلوم، أمر قد يحظى بوجاهة ما في بادئ الأمر، لكن هذه الوجاهة تزول سريعاً لتحل محلها علامات استفهام كبيرة إن لم نجد إجابات مقنعة على جملة من التساؤلات، أهمها:

لماذا نعلّم أطفالنا في المراحل التعليمية المبكرة (في رياض الأطفال والابتدائية والإعدادية) لغات غير لغتنا القومية المنصوص عليها دستورياً بناءً على موروثاتنا الحضارية والثقافية،

بينما كان يمكننا أن نعلمهم تلك اللغات في مراحل تعليمية متأخرة بما يتناسب مع حاجتهم الفعلية لتلك العلوم وسوق العمل؟

فنحن مثلاً لم نجد مؤسسات علمية غربية -صغرى أو كبرى- تطلب أطفالاً عرباً للالتحاق بها للتعلم أو العمل، لكي نسعى لتقديم ما تحتاجه أسواقها منهم! بل إن عمالة الأطفال تحت أي مسمى أمر مخالف للقوانين الصارمة في المجتمعات الغربية، وهي الصرامة التي نحن بحاجة إليها أكثر من حاجتنا لتعلم لغتهم.

ولماذا نعلمها لجميع الطلاب إجبارياً ونحرمهم من حقهم في الاختيار بين تعلمها من عدمه؟ ونكلف أسرهم المنهكة اقتصادياً أعباءً مادية ثقيلة تزيدهم فقراً على فقر، وتزيد أعباء الدولة مرة أخرى حينما تنفق مئات المليارات على هذه المناهج فتلجأ لتعويضها من جيوب المواطنين في صورة ضرائب ورسوم وغيرها.

بينما عدد من يمكنهم استثمار ما تعلموه من تلك اللغات لا يكاد يُذكر، مقارنة بالأعداد الكبيرة للطلاب الذين أنفقت عليهم تلك الأموال الطائلة، والتي لو مُنحت لهم بعد التخرج أو استثمرت اقتصادياً لكانت سبباً في رقي البلاد ورفاهية مواطنيها.

وهل هناك جدوى أو قيمة واحدة من أن يتعلم أطفالنا التاريخ، والجغرافيا، والدراسات الاجتماعية والفكرية باللغة الإنجليزية؟

في حين أن تعليمهم هذه المواد باللغة العربية أسهل، وأوقع، وذو مردود استيعابي أوسع، ووطني أعمق؛ بما يعزز قيم الانتماء الوطني والثقافي لدى هؤلاء النشء، فضلاً عن أنه لا يمكن أن تجد أمة واحدة في العالم كله تدرس تاريخها وأدابها لطلابها بغير لغتها الأصلية.

### تحقق الفائدة العلمية

ويبقى السؤال الأهم وهو: هل كل الشعوب التي أهدرت لغتها القومية وتعلمت الإنجليزية أو الفرنسية وصارت تتحدث بها في حياتها اليومية أصبحت شعوباً متقدمة؟

الإجابة تأتي من قارات العالم الست، لاسيما أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا؛ فأخبار الجريمة والفساد والمجاعات والجهل والتخلف فيها تنصدر نشرات الأخبار في فضائيات العالم مثلها مثل باقي الدول النامية وربما أكثر وقعاً، فما الجديد الذي نسعى لتحصيله من وراء تعلم طلابنا تلك اللغات على المشاع؟

### الاستثمار في العربية

بدلاً من الجري وراء قطار التبعية الثقافية، يمكن لدولة مثل مصر أن تستثمر حضارياً واقتصادياً في الإنفاق على تعلم اللغة العربية وتتلقى مردوداً هائلاً منها؛ فمصر واحدة من أكبر

بلدان العالم التي يتحدث سكانها اللغة العربية، وتملك أعظم معاقل تعلمها التاريخية وهو الأزهر الشريف.

بينما هناك ما يقرب من 57 دولة حول العالم ديانتها الرسمية هي الإسلام، فضلاً عن ضعف هذا الرقم في دول أخرى يمثل فيها المسلمون أقليات بنسب متفاوتة، وبالتالي فهي بحاجة إلى المتحدثين باللغة العربية الفصحى لتعليمه أبنائهم لغة دينهم، وهي بحاجة أيضاً لمن يملكون خبرات في كافة المجالات الأخرى ممن يجيدون العربية. في مثل هذا السلوك يمكن لنا الاستثمار الاقتصادي، ونجاحنا في ذلك مضمون.

كما يمكننا أيضاً العودة إلى عصر كان فيه الأزهر منارة للحضارة ومحجاً لراغبي العلم من أصقاع العالم كافة، وتعظيم هذا الشأن واستغلاله في عودة مصر لتحتل مكانتها القديمة بين أمم العالم بعلمها وثقافتها، وليس بعلم وثقافة الآخرين.

.....

نأمل من وزير التعليم الجديد في مصر تدارك الأخطاء، وأن يعلم الأطفال العربية أولاً، وعندما يجيدونها يعلمهم لغة غيرها.. فمن خرج من داره قلّ مقداره.

## الاعتداء على الهوية الثقافية

28 سبتمبر 2021

بينما كنت أتسوق مع صديق لي في «مجمع تجاري» في منطقة راقية شرق القاهرة -ذهبت إليها صدفة ولست من سكانها- لفت انتباهي أن أغلب المحال تكتب أسماءها بلغات أجنبية، غالباً ما تكون الإنجليزية، وأحياناً أخرى باللغة الفرنسية، خاصة في المحال العاملة في مجالات العطور وحاجيات الجمال والأناقة للنساء.

وغابت اللغة العربية عن أغلب الياфطات لدرجة أنني تراهنت مع صديقي على أن يجد لي محلاً يرفع لافتة مكتوبة باللغة العربية، وحينما وجدها كانت الكلمة عربية ولكن بحروف لاتينية!

وهي في الحقيقة ظاهرة ليست قاصرة على المناطق الراقية كما أشرت سابقاً، ولكنها تنتشر في كثير من المحال والعلامات التجارية في مصر كلها بما فيها المناطق الشعبية، وفي محال يرتادها أحياناً من لا يجيدون القراءة والكتابة أساساً.

ولذلك فالأمر مثير للسخرية؛ فالمحال والبضائع وإرشادات البيع والشراء مكتوبة بلغات أجنبية، بينما البائع والمشتري يتحدثان العربية، ويتبادلان الحديث عن مميزات البضائع ونقائصها باللغة العربية، وأحياناً تكون البضاعة نفسها مصرية! فلماذا ذلك الجنوح للاغتراب؟

بعض التجار يعتقدون أن الأسماء الأجنبية تضيف لمحالهم الفخامة والعراقة والعالمية، وتكسبهم ثقة الزبائن وتوحي لهم بجودة البضائع، مما ينعكس عليهم بمزيد من المكاسب، والبعض الآخر يفعلها دون أن يعي ذلك، ولكنه التقليد الأعمى.

وفي اعتقادي، أن الأصل في اللجوء للكتابة باللغات الأخرى هو فقط لخدمة الجاليات غير العربية التي تعيش في مصر، وهم لا يمكن أن يكونوا أكثر من 2% من عدد السكان، كما أن بعضهم يتحدثون ويقرؤون العربية أيضاً.

### تجارب الأمم

أتذكر ما قصه قريب لي يعيش في كوريا الجنوبية، من أن أهلها بطبيعتهم يأبون النطق أو الكتابة بأي لغة غير لغتهم إلا في الضرورة القصوى للتعامل مع الأعراب، وأنهم يعتبرون الكوري الذي يتحدث معهم باستخدام مفردات من لغات أخرى بمثابة نقیصة فيه مثيرة للخزي وليس للفخر كما هو الحال عندنا.

وقرأت أن فرنسا قامت في القرن الفائت بفرض غرامة قدرها ألفا فرنك على كل من يستخدم كلمة أجنبية واحدة يوجد لها مقابل في اللغة الفرنسية، كما أحيت الصين عقب الاستقلال مباشرة

لغتها القديمة حتى تبدأ بها نهضتها الحديثة الحالية، وفعلت ذلك أيرلندا أيضاً التي ثارت على اللغة الإنجليزية وأحيت لغتها الأيرلندية.

ولنا في الكيان الصهيوني عبرة؛ فحينما راح ينشئ دولته المشؤومة لم يكتفِ فقط بتكديس السلاح وصناعة الأحلاف الدولية التي تحميه، بل راح قبلها ينتشل اللغة العبرية من الانقراض ويجعلها لغته القومية، ويفرض على شعبه تعلمها والحفاظ عليها، وراح يسرق الأحياء والقرى والمدن العربية ويسميتها بأسماء عبرية؛ فإذا كان هذا ما يفعله السارق، فكيف يفرط المالك فيما امتلك؟

وحتى في عالمنا العربي هناك أيضاً تجارب رائدة في احترام اللغة العربية وتعريب الشوارع، كما حدث سابقاً في العراق، وسوريا التي كسرت أكلوبة أن العلوم الحديثة لا يمكن تدريسها بغير لغاتها الغربية، وراحت تعرب العلوم في كل مراحلها ومسمياتها، وأنجبت علماء نوابغ في كافة المجالات العلمية.

### اعتداء غاشم

المؤلم في الظاهرة -التي تفشت بشكل كبير مؤخراً- أنها تمثل اعتداءً غاشماً على الهوية الثقافية المستقرة للشعب المصري، وتنتزعه انتزاعاً من عالمه المعلوم إلى عوالم أخرى يجهلها وليس بحاجة إليها.

قد يعتقد القارئ أنني أهول من أخطار تلك الظاهرة حينما أطلب بتشريعات تحد منها، وتلزم الشركات والمحال باختيار أسماء عربية لها، وتلزمها بأن تقوم بعمل لوحات العلامات التجارية والدعاية الخاصة بها بأشكال جمالية محددة ذات معايير موحدة؛ تحافظ من ناحية على الهوية الثقافية الخاصة بأغلبية السكان، ومن ناحية أخرى تحقق المشهد الجمالي وتنمي الذوق العام.

مجمع اللغة العربية أدرك خطر الظاهرة عام 2017 وأعدّ مشروع قانون لحماية اللغة العربية، يلزم المعلنين بأن تكون الإعلانات باللغة العربية، إضافة إلى تسمية الشوارع بأسماء عربية، كما أكد القانون تعريب تدريس العلوم في المدارس والجامعات، وأن يتم منع الحديث باللغات الأجنبية في الأعمال الدرامية والسينمائية والفنية، وضرورة أن تكون النقود والعملات المصرية والأوسمة وغيرها من الأوراق الرسمية للدولة مكتوبة باللغة العربية.

ولكن لم يحدد المشروع سبل ضبط المخالفين، ولا جهات الضبط أو تلك المناطق بها مراقبة الأمر، ولم يلزم الشركات الخاصة بضرورة أن تتعامل باللغة العربية في مكاتبها الداخلية أو مع عملائها.

ورغم أن مشروع القانون يعد وثبة كبيرة في الدفاع عن الهوية الثقافية المصرية، إلا أنه على الأرجح لم يرَ النور لسبب غير معلوم، أو أنه أقرّ تشريعياً وحُبست إرادة تنفيذه في الأدرج!

الأغرب أن جهات حشدت عام 2018 لمظاهرات محدودة أمام ديوان وزارة التربية والتعليم، صبيحة تصريحات تلفزيونية للوزير بتعريب المناهج للمرحلة الابتدائية بالمدارس «التجريبية»، ولم تمض 48 ساعة حتى تراجع الوزير عن تصريحاته، ليكون هو أسرع تراجع عن تصريحات لمسؤول مصري، مما ألقى شكوكاً حول مدى جدية إطلاقها من الأساس.

ولعلك حينما تعرف أن الدولة لم تشيّد أي مدارس تعليم أساسي عربية تُذكر منذ عام 2010، وانصب كل جهدها في إنشاء مدارس اللغات «التجريبية والخاصة» طيلة تلك الفترة، سيزول الاندهاش تماماً.

نحن على مشارف بيع الهوية!

## مأساة العربية في موطنها

30 يونيو 2023

هناك العديد من الأخطار التي تواجه اللغة العربية في داخل أقطارها، وتشكل تهديداً جوهرياً لها، ورغم ذلك لا وجود لأي ردّ جادّ ومناسب من قبل الجهات المختصة بحماية الثقافة والتراث والهوية تجاهها، خاصة أن اللغة تشكل في الواقع هوية البلاد، وبالانتساب إليها أطلق علينا «البلاد العربية».

وما يزيد الطين بلة، أن الإعلام بكافة أنواعه (الرسمي والخاص) يتصدر قائمة أكثر الوسائل مساهمة في تسارع وتيرة هذا الانهيار، مع ملاحظة أن هذا الإعلام في البلدان العربية -بكل أنواعه أيضاً- يخضع لرقابة الدولة الصارمة، ولا يمكن أن يمرّ أي توجه فيه دون رغبة السلطة.

ومن جانب آخر، أضفت مسألة العولمة، والتفوق التكنولوجي الغربي، وتدفق الإعلام من شمال العالم إلى جنوبه (حيث تقبع أمتنا العربية)، والإعلام الإلكتروني ولغته وأدواته وطبيعته مستخدميته، تعقيداً كبيراً للأزمة، مسّ بضرر جميع لغات العالم تقريباً، وفي مقدمتها العربية.

ومصدر فداحة الضرر الواقع على اللغة العربية هنا يعود إلى ما تمتلكه من رصانة وبلاغة لا تتناسب مع تعجل ومحدودية ثقافة ووعي الكثير من مستخدمي تلك التقنيات والتطبيقات. وفي المقابل، جاء الأمر ذاته بفائدة كبيرة للغات المسيطرة على الإنترنت في العالم، كالإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والصينية.

### اللهجات العامية

وتأتي مشكلة اللهجات «العامية» أو «الدارجة» لتضرب اللغة العربية في مقتل، نظراً لأن الطعنة هنا تأتيها من الناطقين بها، وممن يُفترض فيهم حمايتها.

فالعامية لم تكتفِ بابتدال الكلمات والمصطلحات وتسطيحها، بل إنها اختلقت كلمات ومصطلحات ومعاني لتشكل قواميس خاصة بها، وجرى الترويج لها تحت شعارات خادعة، كالشبابية، والعصرية، وخفة الدم.. إلخ.

هذا الابتدال أضّرّ خارجياً باللغة العربية؛ حيث كان سبباً في وقف بعض الجامعات العالمية إيفاد طلابها لدراسة العربية في بيئتها الأصلية؛ لأنهم كانوا يعودون ولم يتعلموا العربية، ولكنهم تعلموا لهجات البلاد التي أوفدوا إليها.

والأنكى من ذلك، أنه تم «تغريب» ونبذ من يتحدث العربية الفصحى في الشارع ووسائل الإعلام، والسخرية منه باعتباره يعاني من إعاقة ذهنية، مع أنهم هم -وليس هو- الأحق بتلك السخرية!

وهناك من دلل على أن انتشار اللهجات العامية في البلدان العربية تم بقصد استعماري؛ حيث ذكرت الدكتورة نفوسة زكريا سعيد في كتابها «تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر»، أن هذه الدعوة بدأت في منتصف القرن التاسع عشر على يد كتاب ومستشرقين أجانب، ونجح الأمر بعد دعوات «التمصير» التي حدثت بعد ذلك، فخرجت «العامية المصرية».

وغني عن البيان أن الاستعمار البريطاني حينما عجز عن فرض لغته في البلاد بسبب نقشي الفقر والأمية، عمل على فصل مصر عن محيطها العربي تحت دعاوى «تمصير» لغتها العربية.

ولكن من بوارق الأمل، أن العامية العربية واجهت أيضاً معضلات في طريقها لتحل محل العربية الفصيحة، أهمها أن كل قطر أو إقليم عربي صارت له لهجته الخاصة، مما تعذر معه انتشار لهجة عامية موحدة، ورجح انتشار اللهجات العربية المسيطرة بسبب السينما والإعلام ووسائل التواصل، كالمصرية والسورية، فقلل ذلك من حدة تشظي اللهجات.

كما زكى شعور الانتماء العربي حالة التفاعل بين اللهجات المحلية والتقريب بينها، خاصة أن العربي من الخليج إلى المحيط مهتم بطبيعته بما يحدث في باقي الأقطار العربية، وبالتالي فهو مضطر لفهم لهجاتها والتواصل مع سكانها، وهو ما ساعد على تقريب الألسنة. كما أن الكثير من اللهجات الدارجة في مناطق البادية لا تزال تستخدم الألفاظ والمصطلحات التي امتازت بها العربية الرصينة.

## اللغات الأجنبية

ومن الأخطار التي تحيق بلغتنا القومية، ذلك السيل الجارف من المدارس الأجنبية التي نقشي إنشائها في جميع البلدان العربية، يرافقه طوفان من مدارس اللغات الخاصة والحكومية، بما لا يتناسب في الكم والكيف مع المدارس المعنية بتدريس العربية.

وخذ مثلاً مصر؛ فقد كشفت دراسة بجامعة جنوب الوادي تحت عنوان «نشأة وتطور مدارس اللغات التجريبية الرسمية في مصر وبداية انتشارها» للباحث صبري الأنصاري إبراهيم وآخرين، أن «مصر انفردت عن باقي الدول العربية والإسلامية في نهاية السبعينيات بإنشاء مدارس لغات رسمية، ثم صدر بعد ذلك القرار الوزاري رقم 94 لسنة 1985 لتنظيمها».

وغني عن البيان أنه جرى في ذات التوقيت توقيع اتفاقية كامب ديفيد، التي أحدثت تطبيقات شروطها السرية -التي تتكشف بين الحين والآخر- تغييرات سلبية كبيرة في المجتمع المصري، ومن غير المستبعد أن يكون تغيير طبيعة التعليم من بينها.

ولقد كانت هناك اعتراضات كبيرة من قبل التربويين والمهتمين بالتعليم على تلك المدارس لما تؤدي إليه من تشتت الهوية الوطنية والإضرار باللغة العربية، لكن الأمر استقر لهذه المدارس وبدأت تتوسع حتى وصل عددها -طبقاً لإحصائية حديثة لوزارة التربية والتعليم المصرية- إلى **2397 مدرسة**.

هذا في حين تتردد معلومات بين التربويين -لا نستطيع التحقق منها- بأنه منذ عام 1990 لم يتم بناء مدارس حكومية عربية جديدة!

يقابل ذلك تقزيم لدور المدارس الأزهرية، سواء في الكليات التي يمكن الالتحاق بها، أو في توظيف خريجها، مع كثافة المناهج، وعجز هائل في المعلمين، وزيادة نسب التسرب التعليمي؛ كل ذلك غيَّبها من أولويات الطلاب وأولياء الأمور، وأخرجها من المنافسة.

كما يظهر الإعلام شريكاً في الجريمة مرة أخرى؛ حيث تظهر الأعمال الدرامية والفنية أن من لا يدخل في حديثه الكلمات الأجنبية هو الأقل تعليماً ووعياً وثقافة مقارنة بغيره.

.....

لذلك يجب على الحكومات العربية أن توقن بأنه لا يمكن أن يستقر انتماء في نفوس طلاب لا يتعلمون لغتهم، ولا يدرسون ثقافتهم، وأن من يزرع الشوك يجني الجراح.

## إهدار اللغة العربية.. جزء متقدم من الحرب على الإسلام

6 فبراير 2018

مما لا شك فيه أننا كعرب ومسلمين نتعرض لحرب ثقافية ضروس، تستهدف ضمن أهم ما تستهدف محو هويتنا الثقافية، التي من أهم ركائزها ذلك المزيج الفكري والقيمي المتين والمتجانس، الناتج عن انصهار الأعراف العربية الحميدة مع قداسة الإسلام بعد تهذيبه لها لتناسب تلك القداسة؛ وهو المزيج الذي مكن العرب من أن يقهروا بالإسلام كل قوى الاستكبار في زمانهم، وأن تنصاع الدنيا لصوتهم رغم ما كان فيهم من ضعف وشتات وتشرذم.

ولقد كانت اللغة العربية واحدة من أهم أدوات تلك الثقافة، نظراً لكونها أهم أدوات التعبير عن الحضارة بين قوم لا يمتازون عن العالمين إلا ببلاغة لغتهم، خاصة أنها هي من حازت دون لغات الأرض على شرف احتكار التعبير بنص القرآن الحكيم، لتعجز فصاحته فصحاءهم، وتؤخذ عليهم آية.

### الاستعمار واللغة العربية

لهذا كان هدم اللغة العربية واحداً من أهم أهداف الاستعمار؛ بدليل أن المستعمرين جميعاً قصدوا -أول ما قصدوا في استعمارهم لشعوبنا العربية- سحق تلك اللغة التي هي منبع قوتنا وإيماننا واستبدال لغاتهم القومية بها. فراحت فرنسا تفرض الفرنسية في مستعمراتها وكانت المطبعة أهم أسلحتها، وكذلك فعل الإيطاليون والأسبان، وكذلك الإنجليز الذين عينوا مستشاراً بريطانياً متطرفاً يدعى «دوغلاس دانلوب» للتعليم في مصر، ليضع سياسة تعليمية تسعى لسحق اللغة العربية في هذا البلد وجعل الإنجليزية لغة التعليم الأولى فيه، لولا أن عطلت الظروف السياسية والاجتماعية آنذاك، ومنها جهل الكثير من المصريين بالقراءة والكتابة أساساً وانصرافهم عن التعليم نظراً لتفشي الفقر، هذا المشروع التخريبي.

### خطورة اللهجة الدارجة

لقد أدرك أعداء الأمة أن الإسلام هو مصدر قوة أمتنا، وأن خطورته تكمن في أنه دين مجتمعي يقوى بتحالف قوى المجتمع، وأن فصاحة العربية هي فقط القدرة على التعبير عن مدلولاته المقدسة؛ وبالتالي كان لا بد من هدمها في عقول وقلوب وألسنة ناطقيها.

وكانت اللهجة العامية هي أولى الطعنات وأخطرها التي تلقاها قلب هذه اللغة، والتي يُعتقد أنها تكونت عربياً كرواسب لتمدد وترامي الأراضي والثقافات التي طالتها الفتوحات الإسلامية، كما أنها تكونت مصرياً جراء تعدد لغات المستعمرين الذين تناوبوا على حكم مصر.

ورغم أن استخدام هذه اللهجة بدا مكروهاً في الأوساط الرسمية سابقاً، إلا أن يداً غريبة امتدت سراً -على ما يبدو- للإعلاء من شأن تلك اللهجة وتنصيبها لغة للمجتمع ككل؛ وبدلاً من أن تعيش حالة عداً مع الثقافة والفنون والأدب، صارت هي اللغة المستخدمة فيهما بدعوى البساطة.

والغريب أن تلك اللهجة الدارجة صارت بمفرداتها المبتذلة بعيدة كل البعد عن اللغة العربية، كما لو كانت لغة أخرى بديلة لها، حتى إنه مع إدامة استخدامها اجتماعياً صارت العربية الفصحى هي اللهجة المستعربة في المجتمع!

### تدمير النشء

ولما كان من المفترض أن البلاد تحررت من الاستعمار الذي كان يفرض لغته علينا قسراً قبل منتصف القرن الفائت، تغير الحال فصرنا نتعلمها وبإسراف أكبر، ولكن تحت دعاوى من قبيل أن «من تعلم لغة قوم أمن مكرهم»، وأن مواكبتهم والاستفادة من علومهم واجبة، وما إلى ذلك؛ إلا أنه رغم ذلك ما استفدنا من علومهم، ولا أمنا مكرهم، ولا حتى تعلمنا لغتهم أو حافظنا على لغتنا!

ولقد لعب الفن والإعلام العربي دوراً كبيراً في جعل رجال اللغة العربية مثلاً للسخرية، وإظهارهم في صورة المغفلين التافهين الرجعيين، كما أظهر شخصيات من يتحدثون بلغات غير العربية بأنهم الأكثر وعياً وعولمة وحدثاً من أولئك المتشبهين بالعربية.

ولا يفوتنا الحديث عن أن هناك كتاباً تفرغوا تماماً لهدم اللغة العربية، ولأن الحرب على اللغة العربية هي في الأصل جزء متطور ومتقدم من الحرب على الإسلام، فقد واجه التعليم الديني التقليدي تحديات جففت منابعه وتسببت في تراجع مستويات خريجيه إما بسبب ضعف الإمكانيات أو إهمال المناهج.

ورغم كل تلك المخاطر، إلا أن الأخطر تمثل في تعليم النشء اللغة الإنجليزية حتى قبل أن يتعلموا لغتهم القومية، ونتج عن ذلك الوضع الكارثي أن أصبح الطفل لا يجيد أبسط بديهيات اللغة العربية، بل وكثيراً ما يتم كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية على طريقة مستحدثة هجينة اسمها «الفرانكو آراب»، فضلاً عن تداول الألفاظ والمصطلحات الأجنبية في كثير من تعاملات حياة الشباب اليومية على سبيل الواجهة و«الروشنة»، وبالطبع المؤامرة ليست بعيدة.

### لغة مقدسة

وليكن معلوماً أن اللغة العربية تحمل في معتقد غالبية الشعب الدينية درجة من القداسة بوصفها لغة القرآن الوحيدة، وهناك عديد من الآثار والأحاديث المتداولة في الأثر التي تؤكد على هذه

المكانة، كالأثر المروي عن الفاروق: «تعلموا العربية وعلموها الناس»، وما جاء في شرف لسان العرب.

كما رُوي في الأثر تنبيه النبي ﷺ على رابطة العروبة كلسان، وصيانة هذه الرابطة من الكراهية أو الجفاء؛ لأنها الوعاء الذي حوى الرسالة الخاتمة ونزل به الروح الأمين.

لقد بات واضحاً الآن أن الحرب على اللغة العربية هي في الأصل جزء متقدم من الحرب على الإسلام.

## الطرق الشعبية للدفاع عن اللغة العربية

29 ديسمبر 2023

في صمتٍ، عدا من أخبار خجولة في موقع هنا أو هناك، مرّ على أمة الضاد في 18 ديسمبر الماضي اليوم العالمي للغة العربية؛ وهو اليوم الذي لولا أن أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1973 ضمن ست لغات فقط من بين آلاف اللغات في العالم -كرمتها المنظمة الدولية باحتفالات خاصة واحتفت بها مكاتبها في كل عام- ما تذكره حكام العرب ولا سعوا إليه، بل إنه لو خُيروا بين الاحتفال به والاحتفال بأي شيء آخر لاختاروا هذا الآخر مهما كان؛ وذلك لأنهم ببساطة هم من يعملون خلف الكواليس ضد هذه اللغة!

والمدهش أننا نجد أن من لا يتحدثون العربية هم من يدركون تماماً أهميتها، ويدركون أنها ملكت ما لم تمتلكه أي لغة في العالم؛ إذ يستخدمها -عدة مرات يومياً- ربع سكان الأرض، حتى لو كان ذلك في أداء عبادات الإسلام فحسب.

نحن هنا لسنا بصدد تأكيد المؤكد عن عظمة هذه اللغة، المحفوظة إلى يوم القيامة بوعد رباني لكونها لغة القرآن الكريم، ولكننا فقط نحاول رصد عدد من الأساليب التي يمكننا فعلها كشعوب عربية تدافع عن إرثها الحضاري، دعماً لهذه اللغة ضد محاولات التذويب والتشويه والبعثرة.

### ابدأ بنفسك

أولى تلك الخطوات أن نبدأ بأنفسنا ثم ندعو غيرنا لتغيير أسمائنا في جميع وسائل التواصل الاجتماعي إلى العربية؛ والهدف أن تكون هي لغة أسمائنا الرئيسية. ومنعاً للتحجج بعدم قدرة غير العرب على قراءة حروفها، يمكننا كتابة الاسم الثانوي بأي لغة أخرى نريدها، كما يمكن أيضاً كتابته في الصور الخلفية للصفحة.

ونستطيع أن نعبر عن هويتنا بكتابة لافتات محال أعمالنا بها، وأن نتفنن في خطوطها ومصطلحاتها لتبدو جذابة، فتمثل دعاية جيدة لهذه اللغة؛ وكذلك الأمر في ملصقات سياراتنا ومركباتنا، وفي بطاقات التعريف الشخصية، وأوراق الدعاية، ولافتات الشوارع، وغيرها الكثير من المعاملات الحياتية.

وفي المقابل، يجب أن تُكافأ المحال والأعمال التي تفعل ذلك بالشراء منها والتعامل معها، مما يشجع الآخرين من رواد الأعمال على العودة لدعم الهوية.

ولو كنت محاضراً أو شخصية يقتدي بها الآخرون، فاحرص على ألا تتحدث إلا بها، وأن تحت الناس على الاعتناء بها وإظهار مدى أهميتها. وفنّد الشائعات التي تتحدث عن أنها لا تصلح للعلوم، وقل لهم إن معظم العلوم الغربية الحديثة بُنيت في الأصل على علوم باللغة العربية،

وأخبرهم أن كلاً من سوريا والعراق (في عهود سابقة) قررا اعتماد العربية لغة للعلوم، فتصدّر العراق آنذاك بين دول المنطقة في الطب والعلوم والتعليم وغيرها.

يجب الحرص على ألا تكثر من استخدام مفردات أو مصطلحات من أي لغة أخرى في كل ما تنشره على صفحاتك عبر وسائل التواصل طالما كنت تعرف الكلمات العربية المقابلة لها؛ واعلم أنك بذلك تقدم درساً تعليمياً غير مباشر لغيرك ممن لم ينل قسطاً معرفياً عن العربية، فربما تكون بذلك سبباً في أن يقلدك شخص له عدد كبير من المتابعين فتعم الفائدة.

كن مهتماً بتعليم أبنائك العربية حتى لو أجبرتك الحاجة إلى إلحاقهم بمدارس اللغات أو المدارس الدولية وغيرها، بسبب سوء المتعمد الذي أصبحت عليه بعض مدارس التعليم العام؛ حينئذٍ يصلح تعليم أبنائك العربية السليمة ولو في المنزل.

ويكفي أن تعلم أنه بتجاهلك للغتك العربية إنما أنت في الواقع تطعن ركناً من ركائز الثقافة الإسلامية، وأنت في الغالب لا تقصد، ولكن الأعداء المتربصين يقصدون؛ ويكفي أن تقف متأملاً أمام رؤية المستشرق الإنجليزي إدوارد دينسون روس التي قال فيها: «اللغة العربية والحروف العربية، والإسلام والقرآن، كلها قواعد بناء واحدة، إن هُدمت واحدة تداعى البناء كله».

واعلم أنه يجب على الإنسان العربي المعتر بأصله، والمسلم المعتر بدينه، أن يعتز بل ويُباليغ في الاعتزاز بلغة القرآن الكريم، وأن يتساءل عما إذا كان قد وجد من قبل أي شخص من مشاهير الغرب أو الشرق، أو حتى بسطائهم، يكتب اسمه بغير لغته القومية؟ وهل وجد إنجليزياً أو صينياً مثلاً يتحدث أو يكتب لمواطن آخر من بني جنسه بلغة غريبة عنه كلغتك مثلاً؟

افخر بعربيتك التي اختارها الله لتكون لغة أقدس كتبه، وانقل فخرك لمتابعيك ومحبيك فيقلدونك وينقلونه هم أيضاً لمتابعيهم، ونمسخ بذلك تلك الصورة النمطية التي روج لها الإعلام طوال عقود عن "المعلم الأزهرى التافه"، و"الخواجة المثقف المتحضر".

يجب تشجيع العودة للفن الجميل الذي ما زال صداه يعتمل في الأفئدة، حينما كانت أغاني الفصحى لأم كلثوم وعبد الحليم وعبد الوهاب وغيرهم تلهب مشاعر المستمعين، وتألّق المتألقون في الشعر الفصيح كأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم ناجي، وكان يُقاس قدر الناس بمدى إجادتهم للعربية.

## تجربة إحياء العبرية

أدركت الصهيونية أهمية اللغة في تكوين الشخصية، فراحت تعيد لغتها المنقرضة من ركام التاريخ وسعت إلى إحيائها في كيانها المزعوم؛ فتناسى اليهودي القادم من روسيا لغته الروسية،

والألماني ألمانيته، والإثيوبي إثيوبيته، واليوناني يونانيته، وراحوا جميعاً يتمترسون حول العبرية، حتى دبت فيها الحياة مجدداً، وربحوا هم هذه الجولة اللغوية.

ولم نجد منهم من يقول إنها ليست لغة العلوم ولا داعي حضارياً للاهتمام بها، أو يقول إنها صعبة الفهم والقواعد ولن يستطيع تعلمها، ولا من يقول إن العالم لن يستطيع قراءة حروفها، مع أنها ليست مقدسة في كتابهم كما هي مقدسة في قرآننا.

هذا كان في اللغة العبرية التي تتشابه لحد كبير مع اللغة العربية في الحروف والقواعد النحوية وحتى في اتجاه الكتابة؛ ماتت تاريخياً ثم أُعيدت الروح فيها، فكيف تقبل أنت أيها العربي وأيها المسلم إهانة لغتك وتشارك في إماتتها وهي محفوظة من الله بحفظ الذكر الحكيم؟

اعتز بلغتك.. تعزز الدنيا بك.

## الفصل الثالث:

# مربط الفرس

# التعليم والدراما

## عن التعليم وسياسة التقليم

12 مايو 2010

إذا تحدثنا عن التطور، فبادئ ذي بدء لا يمكننا إلا أن نتحدث عن التعليم. ولا يمكننا أيضاً - مرضاةً للضمير وتعبيراً عن الصدق - إلا أن نقول إنه لا يمكن لأمة من الأمم أن تتقدم دون أن تمتلك منظومة تعليمية سليمة، تراعي أول ما تراعي ربط حاضر الإنسان بماضيه؛ وذلك على اعتبار أن فهم الماضي واستنهاضه هو دراسة مكثفة لاستدراك المستقبل.

والحقيقة، أنني أجد سوء فهم واضح يعترى ذكاء القائمين على التخطيط لرسم تلك المنظومة في عالمنا العربي عامة، وفي مصر بشكل خاص، لدرجة تشكك في صحة وجود هؤلاء المخططين أو تلك المنظومة في الأساس! وإلا، فإن لم يكن هذا الشك في محله لكانت الكارثة أعظم، وخرج الأمر من طور "الجهل بالتعليم" إلى طور "الخيانة".

فقد يجد هذا المسؤول أو ذاك نفسه يمارس - بكل فخر - عملية خلع الأردية والتعري من كل ما يستره أمام العيان، ويروح يتهجم على كل ما له صلة بالماضي، متشدقاً بمصطلحات هو ذاته لا يدرك معناها، من قبيل: التحديث، والتطوير، والتنوير، والانفتاح على العالم.

وبالطبع، تتعكس تلك الرؤية المشوشة على مناهج التعليم التي أُعطيت - بكل أسف - مفاتيح إقرارها لهؤلاء؛ فنكتشف أنها مناهج باهتة، فلا هي استنهضت الماضي الذي لا نملك سواه، ولا استشرفت المستقبل الذي نجهله، ولا حتى استطاعت أن تكشف غبن الواقع الذي نعيشه فننتصر عليه.

ويعتقد هذا المسؤول أو ذاك أنه كلما أهدر التاريخ أو زيفه أو سخر منه فهو بذلك ينتصر على "التخلف"، وأنه كلما تحرر من ثقافته العربية صار بذلك رجلاً غربياً متطوراً ينتقل بأجيال بلاده إلى المدنية.

إنها حالة حادة من جلد الذات والشعور بالدونية؛ وإلا فبماذا نعلل انتشار المدارس الأجنبية والخاصة والتجريبية في طول البلاد وعرضها، وهي جميعها يتم التدريس فيها للنشء بدءاً من رياض الأطفال باللغات الأجنبية؟ بل إن مناهج اللغة العربية، والدين، والتاريخ لا تُدرّس في بعضها أساساً، ولو دُرّست فيتعامل معها كما كان - وربما لا يزال - يتعامل جيلنا مع "حصّة الألعاب"؛ بحيث لا يحضرها أحد، ولا يُحاسب على التقصير فيها لا المدرس ولا الطالب، بل ربما تمت مكافأة الناظر!

لقد أنتجت هذه الرؤية المشوشة والمنظومة المعدومة جيلاً أقل ما يوصف به أنه "مسوخ"؛ فلا هو أوروبي ولا عربي، ولا هو متعلم ولا جاهل، ولا هو يعرف من أين هو أت ولا إلى أين هو ذاهب، بل ولا يعرف عدواً من حبيب. لقد أصبح الشخص الذي يحمل شهادة الابتدائية منذ نحو ثلاثين عاماً مضت، يمتلك وعياً وثقافة وعلماً أفضل من حامل شهادة الدكتوراه في هذه الأيام!

أنتجت جيلاً أمياً يحمل "أعلى" الشهادات وأعلاها، وفي الوقت نفسه يحمل أقل الثقافات والعلوم وأدناها. وبرغم تلك الشهادات البراقة، ستجده جيلاً لا يكاد يستطيع القراءة والكتابة لا بالعربية ولا بالإنجليزية ولا حتى بالصينية! وأنا أستطيع وبكل ثقة أن أجزم بأن اختباراً حقيقياً في القراءة والكتابة – بأي لغة من اللغات – كفيل بأن يعيد معظم خريجي الجامعات المصرية الآن إلى المراحل الابتدائية مجدداً.

وأنا واثق أننا سنجد من بيننا من يدافع – بحسن نية – عن التوسع في تعليم اللغات الأجنبية بذات الحجج التي قد يسوقها المغرضون؛ من ضرورة الانفتاح على العالم، واللاحق بعلوم الغرب بلغتهم، فضلاً عن المقولة الشهيرة "من تعلم لغة قومٍ أمنَ مكرهم". وللرد على هذه الادعاءات وما شابها أقول:

أنا على يقين أنه لم ولن تحول اللغة العربية – بتعدد مفرداتها وعمق دلالاتها – دون النهضة والتطور؛ بدليل أن عمليات تعريب العلوم التي انتهجتها الحكومة المصرية في عهد عبد الناصر، وعراق صدام حسين – ولا تزال تنتهجها سوريا – هي التي خرّجت للعالم فاروق الباز، وأحمد زويل، ومجدي يعقوب، ومحمد النشائي، ويحيى المشد، وغيرهم من العلماء. كما أنها هي التي خطت للعراق سجلاً حافلاً من العلماء في شتى العلوم، جعلت العالم الغربي يعيش حالة قلق شديد من ذلك النمو المذهل الذي اعتبره يشكل خطراً تنافسياً عليه، وكان ذلك أحد الأسباب الجوهرية التي قادت لغزو العراق.

إذن، فالعربية ليست ضد التحديث، كما أنه ليس المطلوب من المواطن العربي أن يصير شخصاً غربياً حتى يتمكن من اللحاق بركب المعرفة والعلوم؛ ولكن الأكثر منطقية هو أن تُترجم العلوم نفسها إلى العربية. ونفعل كما فعلت أمم كثيرة من قبلنا مثل الصين، واليابان، وروسيا، وإيران، حينما نقلت كافة العلوم إلى لغاتها وطورتها بما يخدم ثقافتها دون خلع للأردية أو سلخ للذات. كما أن الاستشهاد بمقولة "أمنَ مكرهم" يحمل قدراً كبيراً من الإضحاك – إن لم يكن السخرية – في حالتنا هذه؛ لأننا بذلك سنشبه المخبر السري الذي جاء في تقرير أعماله أنه كان أبرز أعضاء العصابة ونفذ لها ما كان مستحيلاً أن تنجزه بنفسها!

وبعيداً عن مسألة المحتوى، هناك أيضاً فشل ذريع يعيب سلامة الشكل التعليمي؛ بحيث أفرغت العملية التعليمية من محتواها، وساوت بين المجتهد وغير المجتهد عبر نماذج التعليم المتعددة، كالتعليم العالي المفتوح، والانتساب، والجامعات الخاصة. وجميعها – بحسب اعتقادي – صور مقنعة لبيع وشراء الشهادات التعليمية دون أي استفادة حقيقية للدارسين.

وتنتشر عبر الإنترنت محادثات، ربما كان أشهرها تلك المحادثة الهاتفية التي دارت بين أستاذ جامعي وأحد الطلبة الخليجين في القاهرة، حيث جرى التعاقد على صفقة "الشهادة مقابل الدولارات". وحينما سألت بعضاً من الطلبة الدارسين في الجامعات، أكدوا جميعاً أن الشهادات أصبحت تُباع وتُشترى، مثلها مثل السيارات وقطع الأثاث!

بل إن المدارس الحكومية – وهي قليلة عدداً مقارنة بالمدارس الخاصة التي تمتص دماء الناس – سنجد أن عملية التعليم فيها تمتاز بفوضوية خاصة تحولها إلى أوكار للبلطجة والإدمان والرذيلة، وكل ما ليس له علاقة بـ"التربية والتعليم".

قد يكون في الأمر قدر من المبالغة، ولكنه بالتأكيد لا يخلو من الصحة، وهذه هي الحقيقة المرة.

إن فساداً رهيباً قد اعتري العملية التعليمية في مصر شكلاً ومضموناً، فجعلها لا تؤتي إلا ثماراً مرّة، فاقدة للولاء والانتماء والأخلاق، بعد أن تحولت هذه العملية من عملية "تعليم" إلى عملية "تقليم" لكل مواطن النبوغ والجمال والإبداع والوطنية.

## لماذا تفشل المنظومة التعليمية في مصر؟

15 أكتوبر 2020

أيام قلائل ويبدأ في مصر عام دراسي جديد، تتضاعف معه معاناة الأسر المصرية التي تعاني الأمرين أساساً من غلاء تكاليف المعيشة، وتدني الدخل، وارتفاع معدلات الفقر والبطالة، وتفشي الأمراض وغيرها. حيث تبقى الأسر بحاجة إلى ميزانيات مالية ضخمة من أجل "الدروس الخصوصية" التي صارت لصيقة بالتعليم رغم تجريمها قانوناً، فضلاً عن ميزانيات الزي، والكتب، والكراسات، وحافلات النقل المدرسية، بخلاف المصروفات المدرسية والشخصية اليومية.

ومع أن كثيراً من الأسر تعتبر أن تلك الأوضاع الاقتصادية وحدها كفيلة بجعلها تدير ظهرها للعملية التعليمية برمتها – وهو ما رفع نسب التسرب من التعليم الأساسي وتسبب في تفشي ظاهرة "أمية المتعلمين" – إلا أن الكثيرين زادوا الأمر تعقيداً باعتقادهم أنه لا جدوى من التعليم أساساً؛ لأن خريج الجامعة – رغم ما أنفق فيه من مال وجهد ومعاناة – سينافس في نهاية المطاف غير المتعلمين في سوق الأعمال الحرفية واليدوية. فضلاً عن الشكوى السائدة من أن قيمة العلم والشهادة لم تعد كافية لحماية صاحبها في مواجهة منظومة البيروقراطية وتراجع فكرة تكافؤ الفرص في بعض مؤسسات الدولة.

### جباية لا تعليم

يسود اعتقاد كبير لدى أولياء الأمور، وحتى المعلمين أنفسهم، أن العملية التعليمية في مصر جرى تحويلها إلى ما يشبه "الجباية الاقتصادية" التي تهتم بكل شيء إلا التعليم الحقيقي.

وهناك قناعة سائدة بأن قرار بدء العملية التعليمية الأساسية منتصف الشهر القادم/رغم جائحة كورونا، لا يقصد منه في بعض الأحيان سوى سرعة تحصيل المصروفات الدراسية – التي تضاعفت بشكل كبير – ليتم بعدها التلويح ببداية أخرى مثل وقف الدراسة حضورياً والتحول للتعليم عن بُعد عند حدوث أي طوارئ صحية أو أزمات معقدة كفصل الشتاء والجوائح. واللافت هنا، أن وزارة التعليم تقوم سنوياً بتغييرات طفيفة في صياغة ومقررات المناهج، يرى الكثيرون أن الهدف منها هو حرمان التلاميذ من إمكانية تبادل الكتب وإعادة استخدامها في الأعوام التالية، مما يضطرهم إلى شرائها مجدداً بأسعار مرتفعة.

ومن الخطط التي أعلنت الوزارة عن دراستها في هذا الشأن؛ فتح منصات تعليمية إلكترونية يشترك فيها الطلاب مقابل رسوم شهرية لكل مادة، وهو ما يعني حرفياً إلغاء "مجانية التعليم" التي تأكلت فعلياً خلال السنوات الماضية ولم يتبق منها سوى القشور، ناهيك عن أن تجربة التعليم عن بعد تكلف الأسر الفقيرة أموالاً طائلة لتغطية نفقات باقات الإنترنت المرتفعة السعر أصلاً.

## إثقال ورتابة في اليوم الدراسي

والواقع أن تجربة التعليم حضورياً داخل الفصول لم تكن أفضل حالاً؛ فبينما يستمع الطالب للتو إلى درس ممل عن "الفيزياء" يدوم 45 دقيقة، يدخل مسرعاً إلى درس مثله في "الكيمياء"، وما إن ينتهي منه حتى يبدأ درساً آخر في "الجبر"، ورابعاً في "الجغرافيا"، وخامساً في "اللغة الإنجليزية"، ثم "اللغة العربية"، فـ "التاريخ"، فـ "الهندسة"، وتاسعاً في "اللغة الفرنسية"!

ليخرج هذا الطالب من المدرسة – التي دخلها في السابعة صباحاً – نحو الثالثة عصراً، قاضياً قرابة ثماني ساعات كاملة يتخللها وقت راحة قصير، تليها جبال من الواجبات والمراجعات التي يتوجب عليه إنجازها. ولأن الوقت لا يتسع، تتحول مسألة إنهاء الواجبات وفهم المناهج إلى مهمة حصرية للدروس الخصوصية، ليليتها النوم دون إتاحة أي فرصة لالتقاط الأنفاس أو الاستيعاب الحقيقي.

هذا الطالب، الذي توحى كثافة المواد بأن المنظومة تعتبره "عبقرياً"، كثيراً ما تجده في نهاية المطاف لا يجيد حتى القراءة والكتابة بالعربية أو غيرها، ليُدخل في عداد "أمية المتعلمين". وكل ما يُخشى منه، هو أن تكون كل هذه المقدمات الارتجالية تؤدي إلى هذه النتيجة بشكل شبيه بالمتعمد.

وما يؤكد هذا الخلل، أن المدارس الدولية والأجنبية في مصر لا تجهد طلابها بهذا الشكل؛ إذ تكون مناهجها أكثر تلخيصاً، وعدد حصصها اليومية أقل، فضلاً عن إتاحتها للطلاب ميزة اختيار المواد التي يفضل دراستها في كل مرحلة. وإذا كان هذا هو حال التعليم العام، فإن الأزمة في التعليم الأزهري تبدو أكثر استفحالاً نظراً لكثافة المناهج الشرعية والعلمية معاً، وسط مخاوف مستمرة من محاولات التهميش والتقليص بدعوى تجديد الخطاب الديني.

## شهادات دولية ومحلية

وطبعاً غني عن البيان أنه وفقاً للتقارير الرسمية الدولية، فقد تراجعت مصر لسنوات في قوائم جودة التعليم العالمية قبل أن تخرج من بعض التصنيفات مؤقتاً. والكل يعلم أن التعليم تدهور على مدار العقود الماضية لدرجة غير مسبوقة؛ بدءاً من شهادة العالم الكبير فاروق الباز الذي أكد في لقاءات متلفزة أن جودة التعليم المصري تدهورت في الخمسين سنة الأخيرة بشكل كبير، وصولاً إلى المواطن البسيط الذي عاصر الأجيال القديمة والحديثة، وأدرك أن الثقافة العامة والموسوعية للحاصل على شهادة "البكالوريا" أو الثانوية العامة في منتصف القرن الماضي، تفوق بمراحل ثقافة بعض حملة الشهادات العليا والدكتوراه في الوقت الحالي.

## لغز الامتحانات والتسريبات

إن التناقض المستمر في تصريحات مسؤولي التعليم حول المسار التعليمي – تارة بالتجمل والإشادة وتارة بالاعتراف بضعف الإمكانيات والمطالبة بمليارات إضافية – يطرح تساؤلات أكثر مما يجيب عنها حول الرؤية الإستراتيجية الحقيقية للدولة.

فحوادث تسريب امتحانات الثانوية العامة التي أصبحت كأنها طقس سنوي بديهي عبر صفحات مثل "شاومينج" على وسائل التواصل الاجتماعي، تثير الدهشة؛ فكيف تنجح هذه الصفحات سنوياً في اختراق السرية والوصول إلى الأسئلة ونشرها قبل الامتحانات، رغم أن عمليات الطباعة والتوزيع تُشرف عليها جهات سيادية دقيقة؟ ورغم إعلان وزارة الداخلية مراراً القبض على القائمين على تلك الصفحات، إلا أن الظاهرة تفرخ من جديد، مما جعل البعض يفسر الأمر بأنه يعكس ترهلاً إدارياً عميقاً أو غياباً للسيطرة الحقيقية. وعندما فُرضت تجربة الامتحانات والأبحاث عبر الإنترنت تحت ضغط جائحة كورونا، جاءت النتيجة مشوهة وبعيدة كل البعد عن التقويم العلمي العادل.

## البُعد الفكري والسياسي للتعليم

ثمة وجهة نظر فكرية ترى أن التعليم في المنطقة العربية لم يسلم من التوجيهات السياسية والاتفاقيات الدولية كـ "كامب ديفيد" وغيرها، والتي استهدفت في بعض بنودها الثقافية غير المعلنة غرس مفاهيم معينة تتواءم مع شروط السلام والتبعية، مثل حذف أو تعديل بعض النصوص الدينية والجهادية في المناهج، وتغيير التفسيرات التاريخية للرموز الوطنية والدينية، وتدوين القضية الفلسطينية لصالح مفاهيم "الشرق أوسطية".

إن الفساد الرهيب الذي اعترى العملية التعليمية في مصر، شكلاً ومضموناً، جعلها لا تؤتي إلا ثماراً مرّة، فاقدة أحياناً للولاء والعمق الفكري والأخلاقي، بعد أن تحولت هذه العملية – في نظر الكثيرين – من "تعليم" حقيقي يبني الوعي، إلى عملية "تقليم" تفرغ المواطن من مكامن النبوغ، والتميز، والوطنية الصادقة.

## حول مأساة التعليم في مصر

15مايو 2017

خرجت مصر من التصنيف العالمي لجودة التعليم، ولم تستطع الحفاظ على رباطة جأشها أو التفوق الذي كانت تبديه على دولة "غينيا". ويثير أمر الاعتراف العلني الذي أبدته السلطات المصرية على لسان وزير تعليمها بهذه الفضيحة – بعد طول نكران – الريبة؛ من أن يكون النظام الذي بدا تغريبياً وجانحاً إلى التنكر للهوية العربية والإسلامية للدولة في سلوكياته، يسعى لاستغلال هذا الإخفاق كذريعة لمزيد من تغيير المناهج، وطمس الجزء اليسير المتبقي من قيمنا الوطنية.

ولو تحدثنا عن التقدم، فلا يمكننا إلا أن نتحدث عن التعليم؛ ولا يمكننا أيضاً – مرضاةً للضمير وتعبيراً عن الصدق – إلا أن نقول إنه لا يمكن لأمة من الأمم أن تتقدم دون أن تمتلك منظومة تعليمية سليمة، تراعي أول ما تراعي ربط حاضر الإنسان بماضيه؛ وذلك على اعتبار أن فهم الماضي واستنهاضه هو دراسة مكثفة لاستدراك المستقبل.

### الهوية القومية

يخيل لي أنه في سعي المسؤولين لتغريب المجتمع، راحوا يعلمون النشء اللغات الأجنبية قبل أن يعلمونهم لغتهم القومية الأصلية (اللغة العربية)؛ فتوسعوا في إنشاء المدارس التجريبية، فضلاً عن مدارس اللغات الخاصة والمدارس الدولية، وجميعها لا تمنح العربية مكانتها المستحقة. في الوقت ذاته، أهملت المدارس الحكومية التي تدرّس اللغات الأجنبية جنباً إلى جنب مع اللغة العربية.

بل امتد الأمر إلى محاصرة التعليم الأزهري وتخريبه؛ تارةً بتكديس المناهج واعتمادها على التلقين والحفظ، وتارةً بسوء الإدارة وإهمال الكوادر وتعيين مدرسين غير مؤهلين، وتارةً أخرى بنشر ثقافة الغش، ثم بمحاصرة خريجيه وتضييق الفرص الوظيفية أمامهم، رغم أن هذا التعليم يضم بين جنباته مناهج تربط الطلاب بالهوية القومية والدينية للدولة.

ورغم أن من أهم المقاصد التي تسعى إليها الدول من خلال التعليم هو تعميق الهوية الوطنية والقومية لدى الشباب، يبدو هذا التغريب لدى بعض المسؤولين – ممن لا تعنيهم تلك الهوية، وللأسف هم من يشكلون القطاع الأكبر في القرار – أمراً عادياً بل ويستحق الثناء لا الذم! ولكن، ألا يدرك هؤلاء أن هذا الإثقال العشوائي في المناهج يخرج جيلاً من المتعلمين لا يجيدون اللغة العربية ولا حتى الإنجليزية، ولم يتعلموا شيئاً البتة؟ وهو ما يفسر بدقة ظاهرة التسرب من التعليم التي بدأت تنفث في الأرياف مؤخراً.

## فشل تام في بنية المنظومة

لقد أنتجت الرؤية المشوشة والمنظومة المعدومة جيلاً أقل ما يوصف به أنه "مسوخ"؛ فلا هو أوروبي ولا هو عربي، ولا هو متعلم ولا هو جاهل، ولا هو يعرف من أين أتى ولا إلى أين يذهب، بل ولا يميز بين عدو وحبیب. لقد أصبح الشخص الذي يحمل شهادة الإعدادية منذ نحو ثلاثين عاماً مضت، يمتلك وعياً وثقافة وعلماً أفضل بكثير من حامل شهادة الدكتوراه في هذه الأيام!

لقد انهارت أطراف العملية التعليمية بشكل كلي في مصر؛ فالمناهج يعترتها كثير من العوار و"الأهواء"، وسُخِرَتْ طبقاً لمقتضيات أخرى غير مقتضيات البحث العلمي الدقيق والصالح العام، وذلك بحسب القرب والبعد من أهداف المسؤولين.

أما المدرسة، فقد صارت أداة للربح بعد أن توغل القطاع الخاص في هذا المجال، وحرص فيه على ما يحرص عليه التاجر غير الأمين؛ وهو بيع البضاعة الفاسدة مع الحفاظ على المظهر البراق. وصار الطالب هو الآخر غير راغب في التعليم، بقدر رغبته في الحصول على "الشهادة الورقية".

إن فساد العلاقة بين أطراف التعليم حوّلته من منتج له مردود أخلاقي واجتماعي بناء، إلى سلعة تُباع وتُشترى تصلح معها الفلسفة السوقية التي تلخصها لفظة "الفهلوة"؛ مما فاقم من ظاهرة الغش، وأفرز خريجي جامعات لا ينالون حتى الحد الأدنى من مقومات التعليم، لدرجة الجهل بالقراءة والكتابة، ولا سيما بين خريجي بعض الكليات الأدبية. كما يمتاز التعليم في المدارس الحكومية – وهي قليلة عدداً مقارنة بالمدارس الخاصة – بفوضوية صارخة تفرغها من أي محتوى تربوي.

## الاستقرار الوظيفي للمدرس

وكما انتهى دور المدرسة الاجتماعي مع عصر الانفتاح في سبعينيات القرن الماضي وما رافقته من ممارسات تنتكر للتراث ورجاله، انتهى أيضاً دورها التعليمي الذي أنشئت من أجله، وأمست محصلة العملية التعليمية داخل المدارس تساوي صفرًا كبيراً بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ حيث تحولت المدارس بمختلف أنواعها إلى مجرد مقار للالتقاء الاجتماعي والتجاري، وعقد صفقات "الدروس الخصوصية" بين المعلمين وأولياء الأمور.

كما أن الحملة الممنهجة التي تشنها وسائل الإعلام على المعلم عند طرح أي مناقشة جادة لحل أزمة التعليم، تبدو كأنها تستهدف مدرسي المدارس الحكومية فقط، في حين أنها تتغافل عن الظلم الشديد الواقع على مدرسي القطاع الخاص. فكثير من المدارس الخاصة تمنح المعلم راتباً غاية في التدني، وتمارس ضده شروطاً تعسفية تتيح لها فصله في أي لحظة، مع جعل "رضا

الطالب" هو المعيار الأول لاستمراره في عمله؛ مما يضطره إلى الانصراف عن تقويم الطلاب إلى إرضائهم ومجاملتهم، ففضى هذا الوضع على المعلم الجاد وأبقى على الأقل كفاءة.

تسببت تلك الحالة في تنامي الشعور بعدم الاستقرار وفقدان الأمان الوظيفي لدى المعلم، وانعكس ذلك بالقطع على سلوكه التعليمي فبدأ مهتماً ومثيراً للرتاء، وبالتالي أثر ذلك سلباً على الطلاب؛ لكون فاقد الشيء لا يعطيه.

ومع قبول المعلم بهذا الوضع مرغماً نظراً لفقر سوق العمل، وجد نفسه مجبراً على اللجوء للدروس الخصوصية لتعويض عوزه المادي.

في الحقيقة، الكلام في هذا الملف يطول، ولكن الخلاصة هي أنه لن يستقيم حال التعليم في مصر إلا إذا عدنا إلى المعادلة الأولى التي أنجبت كل نجباء مصر في العقود الماضية؛ وهي اعتبار التعليم رسالة وطنية وإنسانية ودينية مقدسة، واحترام المعلم باعتباره مربياً لأجيال، واعتبار التلميذ قائداً للمستقبل الذي نرجوه.

## دراما برائحة المؤامرة

10 يونيو 2016

كثيراً ما يحار المرء: أي أعمال درامية يشاهد من تلك التي تبثها آلاف المحطات الفضائية من كل حدب وصوب؟ وهي محطات تختلف في القصة والأشخاص والوقائع، ولكنها تتفق غالباً في الانحياز إلى الإسفاف والابتذال أو التوجيه السياسي، لدرجة أنك قد لا تجد عملاً فنياً إبداعياً حراً واحداً يستحق المشاهدة وسط هذا الخضم الهائل من الدراما.

وكثيراً ما يجد الواحد منا نفسه مخيراً بين خيارين كلاهما مُرّ: إما مشاهدة أعمال درامية تبدو في ظاهرها جادة وهي في واقع الأمر مسمومة، أو أعمال أخرى هزلية لا ينكر صنّاعها هزليتها. وغالباً ما نختار الصنف الثاني، لنكون كمن اختار أن يتم استغفاله بإرادته الحرة؛ حيث يبتلع سخافة الإعلانات وردالتها التي تقطع العمل إرباً إرباً، فقط ليتناول وجبة دسمة من الإسفاف. ومع ذلك فهو غير آسف على هذا؛ فقد اختار "الردالة" هرباً من "الرديلة" والانحطاط الفكري.

### الدراما والأمن

كان الهدف الأساسي من تقديم "الدراما" تاريخياً هو التوجيه، والإرشاد، والعظة المجتمعية، ونقل تجارب الآخرين؛ لكن سرعان ما طغت عليها الحسابات السياسية، وتحولت بقدرة قادر إلى أدوات تعبت بالوعي وتوجه الذهن. والذين يحركونها اليوم ليسوا مبدعي الفن ولا خيال المؤلفين، بل مقتضيات أمنية.

ومسعى السلطات في عالمنا الثالث عادة توظيف الفن لخدمة السياسة كان موجوداً طوال تاريخ الدراما، بدءاً من ديوان القص العباسي، وصولاً إلى أفلام ومسلسلات مثل: "ناصر 56"، و"أيام السادات"، و"حسن البنا"، و"الإرهابي"؛ وكلها تمثل جزءاً يسيراً من سلسلة طويلة من الأعمال الفنية التي تسير في إطار التخديم على وجهة نظر السلطة الحاكمة.

وفي المقابل، نجح المعارضون في المضمار ذاته، ولكن بصورة أقل تأثيراً تفتقد القدرة على التركيز فضلاً عن الانتشار، فأنجوا أعمالاً مثل: "الكرنك"، و"البريء"، و"إحنا بتوع الأتوبيس"، و"لا"، و"هي فوضى"، و"حين ميسرة"، و"الديكتاتور"، و"الفرافير"، و"يوميات نائب في الأرياف"، وغيرها من الأعمال التي نجحت في الإفلات من مقص الرقيب.

### تفريغ الكبت

إن تدخلات السلطة في الدراما حولتها إلى مجرد أبواق تخدم أهدافها وتصون بقاءها – على افتراض الفصل بين السلطة المؤقتة والدولة الدائمة – لكن هذا التدخل لم يصن للدولة أمناً ولم

يقدم للمجتمع فناً؛ حيث شغلت تلك التدخلات المرء طوال الوقت بغرائزه ومعدته، مكرسةً فكرة أن إشباع تلك الحاجات البيولوجية هو قمة الإشباع والوجود.

فإذا فشل الشاب في إيجاد عمل، فبدلاً من أن توجهه المادة الدرامية لمطالبة الدولة بتوفيره، تُصوّر له الدراما احتساء الخمر وارتياح الملاهي الليلية كوسيلة لنسيان فشله، أو تدفعه للتحول إلى نصاب يرتاد طريق اللصوص، أو مروج مخدرات يحقق الثراء السريع، أو محتال يرتدي ثوب رجل أعمال ناجح!

وراحت هذه المادة تقدم مبررات واهية للتمرد على قيود الأسرة والمجتمع؛ فبررت الدراما الخيانة الزوجية باعتبارها "قصة حب"، وبررت انحراف الفتاة بتعرضها لصدمة عاطفية، وصوّرت العاهرة بوصفها ضحية للمجتمع لا شريكة في الجرم.

وحينما حاربت السلطة في مصر بعض التيارات الدينية ووصمتها بالارهاب، راحت الدراما تحارب التدين ذاته؛ فصار الأزهري أو المتدين في المشهد الدرامي إما سفيهاً، أو سطحياً، أو مخادعاً، أو إرهابياً مثيراً للسخرية. ومُنعت الممثلات من ارتداء الحجاب في أعمال كثيرة، رغم أننا في مجتمع ترتدي النسبة الساحقة من نساءه الحجاب. وإذا ظهرت المحجبة في عمل ما، فهي إما امرأة شمطاء تداري قبحها، أو معقدة نفسياً ومنتزمتة؛ رغم أن الحجاب هنا يعبر عن سلوك ثقافي وهوية مجتمعية أكثر من كونه مجرد رمز ديني.

### الدراما المصرية والسورية

لا شك في أننا حينما نتحدث عن الدراما العربية، فإننا نتحدث تحديداً عن الدراما السورية والمصرية بصفتهما النموذجين الأبرز في المنطقة.

ومن أخطر الصور النمطية التي روجت لها كثير من أعمال الدراما المصرية، هي تصوير الغش، والخداع، والكذب، والخيانات الزوجية كأنها لوازم عادية جداً من لوازم العمل الاجتماعي والتجاري الناجح، بل وقرنتها دائماً بشخصيات درامية تُقدّم كنموذج للذكاء والنجاح الذي يجب الاقتداء به. يأتي ذلك على عكس القيم النبيلة التي حملتها الأعمال الفنية السورية – لا سيما القديمة منها – قبل أن تصاب هي الأخرى بمرض "العصرنة" و"المصرنة".

وخذ مثلاً عمليين فنيين يكشفان بوضوح الدعوة لتبني قيم الهدم في الدراما المصرية وقيم البناء في الدراما السورية؛ فمسلسل "لن أعيش في جلباب أبي" قدم نموذجاً لشخصية رجل أعمال نجح نجاحاً مبهوراً يتمناه أي طامح، إلا أنه قرن هذا النجاح في بعض جوانبه بوسائل تعتمد على الانتهازية والاعتماد على الحيلة والصدفة البحتة، فضلاً عن البذخ والإسراف، بل إنه صوّر ابنه الذي يرتاد المساجد بأنه النقطة السوداء المتمردة في حياة هذا الرجل.

ولعل انتشار الدراما المصرية على رقعة واسعة من مساحة الوطن العربي هو ما جعلها هدفاً لسهام التوجيه والانحراف لتغيير ثقافة المجتمع العربي.

وفي المقابل، فإن المسلسل السوري "باب الحارة" (في أجزاءه الأولى) قدم نموذجاً جيداً يمكن الاقتداء به؛ حيث مجّد النضال ضد المحتل الفرنسي والصهيوني، وأثنى على قيم الترابط الاجتماعي، واحترام كبير الأسرة والحارة، ومساعدة الفقير، وتجريم الكذب والخداع، واحترام المرأة ونصرة المظلوم وغيرها من قيم البناء. إلا أن يد التوجيه والتأمر طالت – للأسف – هذا العمل الفني الكبير في أجزاءه اللاحقة، وراحت تدس فيه قيم الانهزامية والتطبيع والتبعية.

والغريب أن كلا النموذجين – السوري والمصري – استطاعا جذب المشاهد وجعله يعيش متأثراً بأبطالهما، وهنا مكن الخطورة؛ لأنه إذا كان العمل هداماً، فسينتج بالضرورة أبطالاً حقيقيين في الواقع، ولكنهم هدامون.

### دراما الأطفال.. السموم الناعمة

إن أخطر السموم التي يمكن أن تقدمها الدراما هي تلك التي تستهدف الأطفال؛ فهي تعيد تشكيل وعي المجتمع من جنوره، وخطورة هذه المرحلة أن ما يتلقاه الطفل يصبح من ركائزه الفكرية والاعتقادية مستقبلاً.

ولقد وصل العصف القيمي أشده لدى بعض مسؤولي الفضائيات في وطننا العربي، لدرجة أن كثيراً منها يقدم أعمالاً تحض الطفل على الكذب والخداع، وتزج به في مهاترات العنف، فضلاً عن جراءة بعض القنوات على عرض مضامين غريبة الدلالات كقصص عبدة الشيطان وغيرها.

ولكننا ونحن نتحدث في هذا المجال، ينبغي الإشادة بعدد من الفضائيات التي سارت عكس اتجاه الإعلام الهدام، وراحت تقدم دراما مسؤولة وأعمالاً تربوية هادفة، ومن أبرزها قنوات: "طيور الجنة"، و"براعم"، و"جيم".

## حينما تكون الدراما هدفاً وطنياً

25 مارس 2025

لا شك في أن الرأسمالية الوطنية في الوطن العربي – إن كانت لا تزال موجودة حقاً – لا سيما تلك القادرة على البذل، والعطاء، وإدارة المشروعات الوطنية الكبرى دون انتظار ربح سوى خدمة قضية بناء الإنسان العربي، قد تأخرت كثيراً في هذا الملف. لقد تركت البسطاء ممن لا يتابعون الأخبار السياسية والمطحنة الجبارة التي لا تتوقف رحاها لحظة بين همّ عام وخاص، نهياً لأنواع أخرى من وسائل الإعلام، أو قل: وسائل الاستقطاب وتزييف الوعي.

فتلك الشاشات التي يتحلق حولها هؤلاء الناس لمشاهدة الدراما بأنواعها، تكاد تكون هي المصدر الوحيد لمعلوماتهم الفكرية، والتاريخية، والسياسية؛ مما أوقعهم بسهولة ضحايا لعملية احترافية ممنهجة لتشكيل أدمغتهم حسب هوى المنتج والعارض ومن يقف خلفهما دون أن يدروا.

ويحدث ذلك دون أن يكون متوافقاً مع قناعاتهم الفطرية التي يؤمنون بها، ولا مع مصالحهم الوطنية والدينية وحتى الشخصية، متى أُعطيت لهم حقائق المعلومات وفرصة التعبير عنها بعيداً عن المؤثرات وعوامل التشويش.

ومع ذلك، فإنه لا يزال هناك متسع من الوقت لتدارك الخطأ، ورتق الثقوب الآخذة في الاتساع في جسد سفينة الوعي، الواقعة في هذا الخضم المتلاحق من الأكاذيب والمؤامرات التي تستهدف تحويل شعوبنا إلى قطيع مدجن يقود نفسه بنفسه إلى المسلخ.

### من التغريب إلى استعادة الهوية

قبل عدة عقود من الآن، وبعدها أتت سياسة "التتريك" أكلها – وهي التي كانت في الأساس معنية بنزع الهوية الإسلامية عن البلاد وحصرها في حدودها الجغرافية الضيقة – كان الحديث عن الخلافة العثمانية في الداخل التركي يعادل تماماً الحديث عن عصور الظلمات في الدول الأوروبية، على الأقل في نظر الجهات الرسمية التي ضيقت بشكل حاد على أي مظاهر تربط هذا البلد بتاريخه الإسلامي. فنشأت في هذا الواقع القسري الجديد أجيال عديدة تعاني انفصاماً عميقاً بينها وبين تراثها التليد الذي جرى تشويهه عمداً لتنتفيحهم منه.

وحينما ارتعشت يد السجان وما عادت قادرة على إحكام قبضتها، نجحت البذور الأصيلة في أن تنبت مجدداً في قصر الحكم؛ فلما نمت وشبت، كان من ضمن أهدافها الإستراتيجية صناعة دراما وطنية تعيد تحميل الذاكرة الوطنية في قلوب ونفوس الأجيال المغيب وعيها، ليلتحم فيها الحاضر بالماضي.

لقد نجحت الدراما التاريخية التركية ليس في تذكير الشعب بتاريخه العريق وهويته الإسلامية فحسب، بل نجحت أيضاً في استخراج المفخر الكبرى التي كان مخططاً لها النسيان في هذا التاريخ، الذي يمثل في جوهره جزءاً من تاريخ العالم الإسلامي كله. فضلاً عن أنها محت الصورة النمطية السلبية السائدة في العالم أجمع عن الدراما التركية بوصفها دراما الخيانات الزوجية وقصص الانحراف والعلاقات غير السوية، وأعطتها الجدية والمهابة الواجبة بما يتلاءم مع إرثها.

### تغريب وتزييف

إننا - نحن العرب - بحاجة ماسة إلى تكرار التجربة ذاتها الآن؛ بحاجة إلى العودة للوراء، لأن في هذا الماضي تكمن كل مسببات نجاح مستقبلنا. فقد عانينا طيلة سنوات طويلة مضت من كون إعلامنا ومؤسساتنا الثقافية يديرها من لا يريد لنا الخير، وهدفه إغراقنا في جدليات التناز، والفرقة، والإقصاء، لتخلو له الأجواء فيشكل مجتمعاتنا المبعثرة والمتناحرة كما يشاء.

لقد تشبّع الناس - وخاصة النشء - بداراما لا تعبر بتاتاً عنا، واستمدوا منها وعيهم بالحياة؛ حيث إنها تغوص بين واقعين افتراضيين على طرفي نقيض: مجتمعات فخمة وفارهة تروج لأنماط استهلاكية وثقافية قد لا تكون موجودة في الواقع، وإن وُجدت فهي لا تركز إلا في نسبة 1% من المجتمع؛ مما يجعل الشباب الذين يواجهون الواقع الحقيقي يكفرون بقيمة الجد والاجتهاد والعمل، ويلهثون خلف الثراء السريع أياً كان الثمن، وبيئة انتهائية تعطي الانطباع بأن الحياة لا تسير إلا بالفهولة، ولا سبيل سوى تحقيق الغاية بأي وسيلة مهما كانت دنيئة.

والمؤسف أن هذا النوع من التردي امتصه المجتمع سريعاً تحت وطأة التضيق على كل مؤسسات النصح، والإرشاد، والتوجيه؛ في المساجد، والمدارس، والنماذج الاجتماعية والفكرية. فصار الواقع أقبح من الدراما، مضافاً إليه الكثير من المعاناة حيث الفقر المدقع، والفساد المستشري، والاستبداد الطاغى، والجوء، والحروب، والظلم السياسي والطبقي والطائفي والقبلي.

وما كان أبداً لهذا الخراب أن يحدث لولا تلك الحرب الدائمة ضد كل ما هو إصلاحى وتوعوي، رغم أن الهدف من الدراما أساساً هو تقديم النصح والعظة، وتعميق صلة الناس بمجتمعهم ومقدساته.

لذلك، أصبح الاستثمار في الدراما الهادفة والبناءة واجباً وطنياً، واجتماعياً، وحتى أمنياً، يعادل تماماً في قيمته الاستثمار في المدارس والمساجد؛ وبحيث نربي نحن أبناءنا بوعينا، حتى لا يربيهم لنا غيرهم على مقاس أهوائه.

## في هذا نجحت الدراما التركية!

30 مارس 2022

استطاعت الدراما التركية في السنوات الأخيرة كسب اهتمام شرائح واسعة من الجماهير داخل أراضيها وخارجها، وصارت سلاحاً أمضى وأحد من كثير من وسائل الردع التقليدية المعروفة.

فبعدما نجحت سابقاً في لفت انتباه الشباب والمراهقين عبر قصص الحب والغرام تارة، والمؤامرة والجريمة تارة أخرى، وثبت وثبة قوية نحو مستهلكين أكثر عدداً ونضجاً وتأثيراً من خلال درامتها التاريخية؛ لتمحو عقوداً من التجهيل المتعمد بهذا التاريخ المجيد. حيث استطاعت أن تزيل – بسلاسة ولين تُحسد عليهما – اللبس والغموض اللذين أريد لهما أن يكتنفا تاريخ الدولة السلجوقية مثلاً، وهي دولة لها تضحيات عظيمة في إفشال أعظم الحملات الصليبية، وكذلك الدولة العثمانية التي كان لها تأثير عميق في تاريخ العالم الإسلامي والعالم أجمع.

لقد أغنت هذه الدراما المشاهد عن عدد كبير من الكتب والوثائق والمحاضرات والندوات، وتركت لدى النشء والأجيال القادمة رواية موثقة تتحدث عن الحقيقة التي يريد كثير من النافذين في واقعنا المخزي أن تختفي إلى الأبد، وسط طوفان من الروايات الأخرى التي صنعت بإتقان وضُخت من أجلها مليارات الدولارات لتزوير التاريخ.

ولقد زادت الدراما التاريخية التركية – مثل: "قيامه أرطغرل"، و"المؤسس عثمان"، و"كوت العمارة"، و"السلطان عبد الحميد"، و"ألب أرسلان"، و"بربروسا"، و"الملحمة"، و"يونس إيمرة"، و"الفتح" وغيرها – من وعي الناس بتاريخ الإسلام والمسلمين، حينما شرحت للعالم حقائق كان يصعب على غير المراقبين إدراكها بسهولة.

### الفتح والغزو

ومن تلك الحقائق؛ أن الإسلام لم ينتشر بالسيف كما يدعي أعداؤه، بل كان الفتح أو الغزو هو السلوك السائد في تلك الأزمنة عملاً بالقاعدة التاريخية: "إن لم تبادر أنت، بادر أعداؤك"، لا فرق في ذلك بين مسلم أو مسيحي أو حتى وثني مغولي.

لكن الفرق الناصع الذي أضافه الإسلام في فتوحاته عامة – وهو دين الرحمة والأمر بالعدل والإحسان – هو أنه لم يجبر أهل البلاد المفتوحة على الدخول فيه، ولم يتخذهم عبيداً. ولذلك بقي الكثير من رعايا الدولة العثمانية في عشرات الدول الأوروبية التي خضعت لحكمها عدة قرون على دينهم دون مساس، في حين ظلت "محاكم التفتيش" في الأندلس و"متحف الإنسان" في فرنسا شواهد واضحة على مر الزمان للاستخدام الوحشي الحقيقي لنظرية حد السيف التي أريد وصم الإسلام والمسلمين بها. وهذا ما نجحت الدراما التركية في تقديمه للناس بما يلامس حقيقة الإسلام وجوهر التاريخ.

وفي رأيي، أن هذا الفرق الجوهرى كان فى حد ذاته سبباً لملامسة الإسلام قلوب الباحثين عن الحرية، خاصة مع وصول المجتمعات الغربية حينئذ إلى حد من الاستهانة بالإنسان جعلها تنقسم إلى فئات مشوهة: غالبية كاسحة من العبيد تملكها أقلية ضئيلة من السادة، وبينهما يتناثر قليل من الأحرار، وكثير من "الأقنان".

ولمن لا يعلم، فالأقنان هم فئة من العبيد ارتقت إلى خدمة الكنيسة، حيث ارتهنوا هم وأسراهم وأحفادهم وأجيالهم القادمة ليكونوا خداماً لقسّ بعينه فى الكنيسة ولذريته ومن يخلفه، وبالطبع كلما زادت رتبة المتبوع زادت قيمة الأتباع. وعموماً فهم كانوا أفضل حالاً من العبيد العاديين؛ حيث كانوا يحصلون على نصيب أكبر من الطعام مقابل جهد أقل فى العمل.

### نحض الأساطير الاستعمارية

كثيراً ما حاولت الميديا الغربية وصم الإسلام والمسلمين بالتخلف، وبأنهم بدائيون يفتقدون للنظافة الشخصية أو البيئية، وأن الحملات الاستعمارية الغربية هي التي انتشلتهم من هذا الوحل. والمؤسف أن تسير بعض أعمال الدراما التاريخية العربية أيضاً خلف هذا التصور؛ لدرجة جعلت بعض "المستعربين" من بني جلدتنا يحتفلون بـ"الحملة الفرنسية" على مصر بوصفها حملة تنوير، رغم أنها قتلت عشرات الآلاف من المصريين وسرقت كل ما أمكنها سرقة، من الآثار حتى أبواب المنازل!

وقد أبرزت الدراما التركية التاريخية عكس ذلك تماماً، فأظهرت المسلمين وهم يقفون على قدم المساواة فى التحضر مع أبناء الحضارات الأخرى، بل إن نظافة المسلمين وتحضرهم كانا سبباً فى دخول الكثير من الأوروبيين الإسلام.

والحقيقة التاريخية تؤكد أن الأوروبيين فى العصور الوسطى كانوا يعتقدون أن الاغتسال يضر بالجسد أو ينافى النقشف الدينى، فلا يقرب المرء منهم الماء إلا لِمأماً طيلة حياته، بحسب ما ورد فى مذكرات النمساوي "ساندور موراي" والمؤرخ الفرنسى "درييار" وغيرهم.

أما بخصوص المدنية، فإن كتاب "ماهية الحروب الصليبية" للدكتور قاسم عبده قاسم – وهو مرجع فريد وموثق فى هذا المجال – يسوق عشرات الشهادات على أنه لم يكن فى أوروبا كلها فى هذه الأزمنة ما يمكن تسميته "مدينة" بالمعنى الحضارى، بل كانت جُلّها قريبات متفاوتة البدائية.

### "بطلوع الروح" .. والدراما العكسية

ما كان للدراما التركية التاريخية تحديداً أن تتال تلك المكانة الكبيرة بمئات الملايين من المشاهدين فى العالم أجمع، إلا بسبب احترامها لثوابت مشاهديها ومعتقداتهم، وقيامها بالعمل لخدمة قضاياهم الكبرى التي تتعدى المصالح السياسية والحزبية والقطرية الضيقة.

وعلى النقيض من ذلك تماماً، تأتي بعض الأعمال الدرامية المحلية لتطعن الثقافة المجتمعية الهادفة في مقتل؛ بتشويه من لديهم اعتزاز قومي أو التزام ديني وإظهارهم بمظهر المخادعين، والجاهلين، والخونة، والمجرمين، مع تحبيذ من يسلكون عكس هذا المسلك.

وبدلاً من أن تنقُض تلك الظاهرة التي كان من ضمن أعمالها قديماً "الإرهابي"، و"الجزيرة 2"، و"غرابيب سود" وغيرها، عادت مجدداً عبر مسلسل "بطلوع الروح"، وهو العمل الذي وُجِّهت إليه انتقادات واسعة عبر وسائل التواصل الاجتماعي لتكريسه صورة مشوهة للتدين تحت مبررات واهية.

ورغم أن بعض هذه الأعمال أُعد بشكل ما لدعم مواقف معينة تجاه الحياة السياسية، فإن الحماسة الفنية وانفلات المعيار الموضوعي نقلا هذه الأعمال من فكرة السجال السياسي إلى حرب غير مبررة على المظاهر الإسلامية نفسها، بما لا يخدم المصالح الإستراتيجية للدولة. ولن نستفيض في تقديم النماذج المسيئة لتاريخنا وديننا في الدراما المحلية لأنها كثيرة ومعروفة وممتدة.

ونصيحة لكل من يقوم على أمر هذه الصناعة في أي مكان: المشاهد العربي أصبح يمتلك من الوعي ما يفرز به الغث من السمين؛ فإما أن تديروا ظهوركم لثوابته فيقاطع أعمالكم وتخسروه، وإما أن تحترموا عقله وهويته فتستقطبوه وتكسبوه.

## الدراما الإيرانية.. دراما الأسرة والمجتمع

2 يونيو 2026

قرأتُ أثناء دراستي الجامعية أن الهدف الأسمى من فن المحاكاة أو القصة أو الدراما بمسماها الحالي بكافة أنواعها -بما فيها المأساة أو الملهمة- هو تقديم العظة والنصيحة الصادقة للمشاهد؛ من أجل صناعة مجتمع مثالي.

وفي الحقيقة، إنني لم ألمس هذا الأمر إلا في القليل جداً من الفن المصري، بل أحياناً يُخيّل إليّ أن هدم قيم المجتمع هو ما يقف وراء ندرة أعمالها الفنية الجيدة. وفي المقابل، يبقى الفن السوري أكثر رقيماً، لا سيما في أعمال مثل "باب الحارة"، حتى جاءت الدراما التاريخية التركية لتنتشله من نمطية سيطرت على بنائه لفترة طويلة من الزمن، وجعلته يماثل لدى البعض دور أفلام الإثارة، لكونه يركز بشكل أساسي على محاسن المرأة وعلاقتها العاطفية.

أما الدراما التاريخية التركية، فقد وثبت بالفن التركي وثبة كبيرة للغاية، وتنامى معها عدد متابعيها بشكل ملحوظ؛ ليحقق مسلسل مثل "أرطغرل" -على سبيل المثال- عدة مليارات من المشاهدات في كافة بقاع العالم. وفي ذات الوقت، ساهمت هذه الدراما في الارتقاء بنوعية المشاهدين ليكونوا من الفئات الأكثر نضجاً ووعياً وتأثيراً في مجتمعاتهم، بدلاً ممن استهدفهم الدراما التركية الأخرى من مراهقين وما شابههم، فضلاً عن أنها أدت دوراً وطنياً لا يُقدّر بثمن لتعريف الأجيال الجديدة في تركيا وحول العالم بعظمة تاريخ الشعب التركي، وروت لهم الرواية الصحيحة المراد إخفاؤها من تاريخه، والذي هو بالمناسبة تاريخ العالم الإسلامي برمته، وكثير من المجتمعات الأوروبية.

ومع ذلك، فلا تستطيع أن تحكم على أيّ من أنواع الدراما السابقة بكونها تستحق وحدها لقب "دراما الأسرة"، في حين أن الدراما الإيرانية تتربع على عرش هذا اللقب بما تحمله من مضامين تربوية تقدم العظة والعبرة بشكل مكثف في قالب عصري وحضاري، محققةً الهدف الأسمى من وجودها للمجتمع.

وقد تعرف العالم بشكل أعمق على الدراما الإيرانية من خلال إنتاجاتها الدينية، لا سيما مسلسل نبي الله "يوسف الصديق"، والعديد من قصص الأنبياء. وما شدّ الانتباه فيها هو التجسيد المتقن للأماكن التاريخية والشخصيات، والموثقة حسب ما صورها القرآن الكريم

والمراجع الدينية السنية والشيوعية على حد سواء، مما أوحى بضخامة حجم الإنفاق الذي حظيت به.

هذا الاجتهاد المشكور في الإمام بكافة معلومات الشخصيات والأماكن، حاز إعجاب ملايين المشاهدين وحقق لها انتشاراً واسعاً، فيما اتخذه الكثيرون مرجعاً للوقوف على سير الأولين. وكان من المفاجئ لملايين المسلمين حول العالم -خاصة في مصر حيث وقعت جل الأحداث لنبيين اثنين- معرفتهم أن المصريين القدماء كانوا يطلقون على نبي الله يوسف اسم "يوزرسيف" مثلاً.

وتتميز الدراما الإيرانية بالعديد من السمات التي قد لا نجدها في أي دراما عربية أو تركية؛ فبينما تُبرز الدرامات الأخرى المشاهد الأسرية وما فيها من تحلل في الملابس والتصرفات والكلمات والإيحاءات الخارجة في كثير من الأحيان داخل الأسرة (وتبرر ذلك بالواقعية الدرامية)، تعالج الدراما الإيرانية هذه المشاهد بكثير من التحفظ الذي لا يخل بجودة المحتوى والمضمون، مُعليةً قيم الأسرة والمجتمع على واقعية فاسدة لا تقدم للمشاهد أي قيمة ذات معنى.

وبناءً على ذلك، فقد صار بديهياً معرفة أن الدراما الإيرانية لا يمكن أن تشاهد فيها أو تسمع ما يوحى إلى الإغراء، حتى لو كانت قصة العمل تتحدث عن علاقة عاطفية أو نزوات المراهقين وما شابه، بل ستجد حرصاً صارماً على تقديم العظة، وتهذيب السلوكيات، وإظهار أوجه الانحراف وعواقبها الوخيمة، والبدائل الصحيحة لها.

ولا تكتفي هذه الدراما بمنع المشاهد المثيرة للغرائز، بل إنها تقوم أيضاً بأعمال التوجيه والإرشاد، والحث على احترام ثقافة المجتمع وهويته حتى في التفاصيل الهامشية؛ حيث يدرك المشاهد بسهولة أنه لا توجد تحية يحيي بها الناس بعضهم بعضاً إلا تحية الإسلام "السلام عليكم"، يقولها الجميع لبعضهم البعض، لا فرق بين الغني والفقير، أو أصحاب السلطة والشعب، أو أبناء الأحياء الراقية والأحياء الفقيرة.

والمفارقة هنا، أنك بالكاد تسمع تحية الإسلام في الدراما العربية، وإذا سُمعت فإنها دائماً تأتي من الفئات المهمشة والأقل علماً ووعياً، فضلاً عن التجاهل الواضح لكل سلوك إسلامي من ألفاظ، وعادات، ومظاهر، وسلوكيات، وإذا استُخدمت فإن استخدامها يأتي هامشياً أو في طور السخرية والتشويه.

والمثير للدهشة، أننا نجد أن "الواقعية" التي يدعي القائمون على الدراما العربية والتركية والمصرية -على وجه التحديد- الحرص عليها في أعمالهم، تختفي تماماً في جوانب أخرى؛

بحيث يندر أن تجد فيها سيدة محجبة، وإذا وُجدت فستكون في حالات محدودة؛ كأن تكون سيدة كبيرة في السن تداري ما حاق بشعرها من مشيب، أو قبيحة الشكل، أو سيدة سيئة السلوك تتخفى خلفه.

....

الدراما الإيرانية هي بحق دراما الأسرة والمجتمع، التي تستطيع أن تشاهدها مع أسرتك دون خجل.

# حول الديمقراطية والاستبداد

## في بيتنا نقاش

30 مارس 2015

جاء الرجل بالنقاش إلى البيت.. والنقاش هو اللفظ المصري الذي يُطلق على فني الديكورات، ليعاين الشقة، وبعد أن عاينها سارع لممارسة العمل، دون أي اتفاق لا على الأجر ولا الطلبات، طالبه رب البيت بالتوقف عن العمل لحين الاتفاق على المراد إنجازَه والأجر اللازم، فما كان من النقاش إلا أن استل سكيناً وعاجل بها صاحب البيت في قلبه.. ووسط ذهول أبناء الرجل راح النقاش يسكب مواد حارقة على الجثة ويشعل فيها النار.. ولما خمد الحريق قام بإلقاء الجثة من النافذة. وحينما ثار الأولاد الصغار على ما حدث انتقاماً لدم أبيهم، راح النقاش يصيب منهم بآلته الحادة من يصيب ويحبس منهم من يحبس في إحدى الحجرات .

وبعد ذلك أغلق الباب بالضربة والمفتاح وراح يمارس عمله في انتشاء وسعادة وكأن شيئاً لم يحدث، لكن ثمة أصوات بكاء وتأوهات وهمهمات تخرج بين الحين والآخر هنا أو هناك من بين أولئك المصابين وهؤلاء المحبوسين، فكانت تثبّط من حماسته وتقلل من شعوره بالسعادة.

قال موجهاً كلامه إليهم: ها أنا ذا أقوم بطلاء حوائط شقتنا، وأزيل من على جدرانها ملامح الكآبة والألوان الباهتة الحزينة.

أخذ أحد الأولاد يتقلب على الأرض في محاولة لاستجماع قوته، فعاجله النقاش بضربة قوية من عصاً كانت بجواره على رأسه، فسقط مغشياً عليه، وراح يوجه له كلامه: سأطليها بألوان زاهية تجعل من هذا المكان تحفة فنية رائعة.

راح يدخن سيجارته؛ وفتش في "جيب بنطاله" عن كبسولة "الترامادول" التي التقطها وابتلعها بسرعة بينما كان يتأمل الحائط بدقة.. هل أدهنها بالمعجون أولاً؟ وكم مرة ترى يجب أن أفعل ذلك؟ أم أقوم بطلائها بـ"البوية" بدون المعجون ثم أضيف عليها لمسات جمالية ورسوماً معينة؟ أم أقوم بلصق ورق حائط ملون عليها؟ أم كل هذا؟

واصل الصمت والتفكير ثم حزم أمره أخيراً.. سأفعل كل هذا، حتى لا يقولوا إنني أبخل على نفسي.

تململ الولد مرة أخرى، وراح يسعى للنهوض في حذر بالغ.. فنظر إليه النقاش نظرة ضجر، وقال له: دعنا نكمل عملنا، لا يمكنني الانتظار كثيراً على هذا الشغب، يمكنك أن تستمتع بمشاهدة الإنجازات التي تحدث في الشقة.

همّ النقاش ليشير إلى علب ألوان خضراء وحمراء وصفراء وقال: هذه هي الألوان التي سيتم طلاء الشقة بها بدلاً من الألوان الكئيبة التي كانت من قبل.

ثم أشار إلى أشكال جبسية مزركشة وقال: هذه سوف توضع في الأسقف وتتخللها مصابيح خافتة وأخرى ناصعة.

ونظر إلى الأرض فقال: وهذه الأرضيات أيضاً سيتم تغييرها بأنواع فخمة من الرخام.

علت دقات الاحتجاج من خلف حجرة الحجز.. اشتاط النقّاش غضباً.. نظر حوله وكأنه يبحث عن وسيلة عقابية ناجعة.. فأخذ مواد حارقة معه وفتح باب الحجرة وقام بسكبها فيها.. وأمسك بعود ثقاب مشتعل وهدد من فيها بأنه إن لم يصمتوا سيقوم بإلقائه على المادة الحارقة ليحترقوا.. فصمتوا.. فأطفأ عود الثقاب.. وسبهم بأقذع الألفاظ وعاود إغلاق باب الحجرة جيداً.. وساد الصمت.

خاف الولد أن يتكلم والتزم هو الآخر بالصمت.. بينما حدق النقّاش فيه قليلاً وقال له: أعرف أنك ولد طيب.

ثم ذهب إلى الثلاجة وأحضر ثمرة تفاح وقدمها له وقال: يبدو أنك من الشخصيات المجتهدة التي لا تضيع الوقت في التربص والحدق والكراهية.. يجب أن ننطق سوياً لتعمير هذا المكان وجعله جنة من جنان الله سبحانه وتعالى في الأرض .

صمت وواصل الحديث بينما بدأ عمله: ربنا سبحانه وتعالى خلقنا لتعمير الأرض وليس تخريبها.. ولكن هناك من يسعون للتخريب.. ورفض التعمير والمدنية.. هم مستعدون لقتل كل من يقف في طريقهم.. لأنهم أهل جريمة وإرهاب .

استمر النقّاش يحكي ويحكي بينما الولد ينصت إليه.. هنا دق باب الشقة بقوة.. ففرح الصبي كثيراً باعتباره الفرج.. بينما انزعج النقّاش بشدة.. فمن هذا الذي يفتحم عليه خلوته ولا يعتد بحرّمات البيوت؟ تحسس سكينه ومادته الحارقة وفتح الباب.. كان الجيران غاضبين بشدة من العثور على جثة متفحمة أسفل النافذة.. واستنكروا أن تُلقى الجثثُ المتفحمة بهذا الشكل في الشوارع.. دون أن يتم إلقاؤها في صناديق القمامة اعتباراً لحرمة الموت!

وراحوا يطلبون من صاحب البيت العون في إزالة هذه القمامة.. أبدى النقّاش تعاطفاً كبيراً مع الواقعة وقال إنها لوالد هذا الصبي.. فقد قام إخوته بفعل هذا به.. وأنه أمسكهم وحبسهم في الحجرة تنفيذاً للعدالة.

أخذ الجيران يتندرون من عقوق الأولاد وأشادوا بعدل النقّاش وسعيه للقصاص.

كان النقّاش قد قام بكل مراحل الديكورات ولكن بطريقة حديثة.. فبدلاً من أن يقوم بطلاء الحوائط بالمعجون ثم الطلاء، أو المعجون ثم أوراق الزينة، راح يضع الطلاء والمعجون وورق الزينة في خلطة واحدة.. ما بدا معه منظر الحائط مثيراً للتقرز.. دخل الجيران الشقة

وراحوا يتأملون النقاشة.. فانقسموا بين نفر يعتبرها مجرد "شخابيط" تعبر عن قصر أفق، وبين رهط اعتبرها "فنناً راقياً يعبر عن الحداثة"، بل إن بعضهم جزم بأنه فنان عالمي.

وأخذوا يحجزون مواعيداً منه لتنفيذ هذه الأعمال في بيوتهم.. هنا أدرك الصبي أنه وحده من يستطيع تحرير أشقائه والقصاص لوالده من "القاتل".

## الإفرازات الضارة للديمقراطية

18 نوفمبر 2016

فجر الزلزال المدوي الذي أفرزته الانتخابات الأمريكية، ووصول مرشح صاحب توجهات عنصرية لا تتفق مع معايير الديمقراطية إلى كرسي حكم العاصمة التي تقود الكون تقريباً، عبر وسائل ديمقراطية خالصة، تساؤلات مدوية في شرق العالم وغربه حول الإفرازات الضارة المحتملة للديمقراطية ونظام حكم الأغلبية.

وهذا النتاج ليس الأول من نوعه؛ حيث يشهد التاريخ أن الزعيم القومي "أدولف هتلر" وحزبه النازي – اختصاراً لكلمة حزب العمال الاشتراكي الوطني – الذي تسببت قيادته لألمانيا في اندلاع ثاني الحروب العالمية ومقتل نحو مئة وخمسين مليون شخص حول العالم، صعد للحكم بانتخابات ديمقراطية خالصة، بل وحاز فيها على نسبة 84.6% من الناخبين، لكن ذلك قد ساعده فيه الغبن القومي الذي وقع على الألمان جراء الوصاية التي فرضتها الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى.

كما أن اليميني الإيطالي المتطرف "بينيتو موسوليني" زعيم الحزب الفاشي – حزب العمال والجنود – قد وصل للحكم تحت رعاية ديمقراطية واسعة، ليشارك في كبريات المآسي الإنسانية في ليبيا والحبشة، ويكون قطباً من أقطاب الحرب العالمية الثانية.

ولكن قبل الحديث عن أخطاء الديمقراطية ينبغي بدايةً رثاء حالنا؛ فبينما نحن في القرن الحادي والعشرين، نناضل في وطننا العربي للوصول لحالة ترسيخ تعريفها والإقناع بها، نجد أن الديمقراطية التي أسس لها نظام الحكم الأمريكي وحلفاؤه الغربيون منذ مئتي عام تقريباً أو يزيد، قد تجاوزت حالة الرسوخ في وجدان الناس لدرجة أنها لما تمكنت من إفراز أسوأ منتجاتها احتراموها، وعملوا أيضاً على تهذيبها وتجنب مخاطرها حتى وإن كانت شطحاتها لا تمسهم هم بالأذى، وأسقطوها بالديمقراطية وليس بالانقلاب.

### عيوب الديمقراطية

للمدقراطية أخطاء وعيوب لا شك، والتي من أخطرها مثلاً أنه من الممكن خداع الجماهير وتضليلها تحت دعاوى زائفة، وتحفيزها لاتخاذ مسارات مغايرة لتلك التي تؤمن بها أو ترغبها أو تلبى احتياجاتها فعلاً، واستغلال جهلها أو حاجتها المادية أو إكراهها بالقوة أو بالحيل وبالحراب والإكراه النفسي للتصويت في صناديق الاقتراع في اتجاه معين.

ولذلك فإن الديمقراطية تحتاج – من ضمن أهم ما تحتاج – درجةً كاملة من الوعي والمعرفة والحرية، وبدونهم ستكون كل تصرفات العمل الديمقراطي نوعاً من أنواع التزوير، الذي يحرم المواطن من معرفة الحقيقة كاملة، ثم يقدم له الاختيارات مشوهة ليختار من بينها.

كما أن للديمقراطية أيضاً عيباً آخر أكثر خطورة، وهو ما يمكن أن نسميه بـ "عيوب المساواة المطلقة في الأمور المتخصصة"؛ فمثلاً لو أجرينا استفتاءً حول اللجوء لاستخدامات الطاقة الذرية في مصر، هنا يصبح من المضحك أن نسأوي بين رأي الفلاح أو العامل أو الصحفي أو المدرس مع رأي عالم الفيزياء أو الكيمياء أو المهندس. وحتى في الشأن العام بكل تنوعاته، قد يكون من المخزي المساواة بين رأي من يملك وعياً وبين من لا يملكه، وأن نسوي بينهما في صندوق الانتخاب على ندرة "الواعين".

وأيضاً من أبرز عيوب الديمقراطية ونظام حكم الأغلبية ما يمكن تسميتها بـ "ديكتاتورية الأغلبية"، والتي تجعل الأغلبية تفرض إرادتها على الأقلية، حتى إن قاربتها في أعدادها، وإن صحت وجهة نظر الأقلية، وتجارب التاريخ في ذلك تشهد.

### خيار لا بد منه

تأول النظم المستبدة – وهي كثيرة في وطننا العربي المنكوب – مثل تلك الانتقادات وتنزعها من سياقها لتتخذها ذريعة فلسفية للانقضاض على الديمقراطية ولتسويغ استبدالها.

ومن العجب أنه في إطار الرسائل المتتالية التي تبعث بها تلك النظم إلى الغرب للتأكيد بأن شعبنا العربي يرفض الديمقراطية التي لن تأتي إلا بأعدائه، وأنه يدافع عن الزعامات العسكرية ومقتنع بها، استغلت السلطة الحاكمة في مصر في خمسينيات القرن الماضي جهل الجماهير وراحت تحشدهم للنزول بالملايين للتعبير عن رفضهم للديمقراطية والهتاف ضدها بوصفها بدعة استعمارية جديدة.. يا للخجل!

كل مثل تلك الهرطقات في الواقع هي في سبيل اللغو المردود عليه بأن: "خطأً أفرزته حركة ديمقراطية هو خير من صواب أفرزه حكم مستبد"؛ لأن الديمقراطية تصوّب توجهاتها وتحمي مبادئها، المهم أن تتمسك الشعوب بها.

الفلسفة الغربية ناقشت مثل تلك الإشكاليات قبلنا بمئات السنين، وبعد دمار شديد عاشته الحضارة الغربية كذلك الذي تعيشه أمتنا العربية الآن جراء الصراع بين الجديد والقديم، استقر في وجدان الناس أنه لا خلاص للبشرية سوى الاحتكام لإرادة الشعوب، واحترام أفكار الناس جميعاً وعقائدهم وحقهم في الحكم، وما إن ترسخ هذا الوعي حتى قفزت أوروبا من الظلام إلى النور.

جاء ذلك رغم أن الاستبداد في عصور الظلمات الغربية لم يكن تحت رعاية عسكرية فحسب كما هو حالنا، ولكن كانت سلطة الكنيسة الدينية الروحية أشد جلدًا لظهور الناس من سياط الحاكم المستبد ونبلائه ونخبته، وهو ما يعني بشكل جازم أن العبء الملقى على ظهور دعاة

الديمقراطية في مصر والوطن العربي أقل بكثير من العبء الذي ألقى على كاهل المواطن الغربي في عصوره الوسطى، ما يعني أيضاً أن إمكانات النجاح هنا أعلى وأكبر لكوننا نواجه فاشية واحدة لا فاشيتين.

أعتقد أنه رغم قساوة المشهد الدموي والفوضوي الذي تعيشه أمتنا العربية الآن، ورغم التعثر والإحباط، فإن المستقبل محسوم للديمقراطية بلا شك.

# فضفضة حول الفشل "الجمهوري" العربي

31 يناير 2022

المتأمل في طبيعة نظم الحكم في عالمننا العربي والإسلامي، لا يحتاج إلى أن يبذل جهداً كبيراً ليكتشف جلياً أن سيادة ثنائية "الاستبداد والفساد" هي القاسم المشترك بينها، وأنه إذا كانت هناك خصال أخرى واصفة لها، فستكون بلا شك "التخلف"، ولو أوهمت شعوبها والعالم بخلاف ذلك عبر اتباع نظام "البهرجة" بمشروعات الأكبر والأطول والأضخم.

## الفشل الجمهوري

ولن يمكث هذا المراقب طويلاً ليكتشف بسهولة أيضاً، أن هناك صفة رابعة تخص تحديداً البلدان ذات النظام الجمهوري منها، وهي "الاضطراب السياسي".

ثم سرعان ما يخرج بيقين أن نظام رأي الأغلبية - وهو جوهر فكرة الاحتكام إلى الجمهور - مهدر تماماً في تلك البلدان، وأنه لا يعدو أن يكون ديكوراً زائفاً، ظاهره تمثيل الأغلبية، وحقيقته تحمل أقصى وأقصى درجات الإقصاء لهم، وأنه تعبير صادق عن حكم الأقلية.

ومكمن الخطورة هنا، أن هذا النظام الجمهوري، في حال فساد آليات اختياره، يحمل في طياته خداعاً كبيراً وظلماً بيناً لشعوبه، فيحرم الناس من حقهم في الجهر بالمظلومية تحت زعم أن هذا الحكم هو في الأصل من اختيارهم.

وفي ظل هذا الوضع الملتبس، يتنامى الشعور بالغبين الوطني وعدم الانتماء، وتزداد الفجوات بين طبقات المجتمع، وتتفكك اللحمة الوطنية، وتكون النتيجة الصراع والاضطراب وغيرها من الصفات التي تتسم بها جمهورياتنا العربية على وجه الخصوص.

ومن عيوب النظم الجمهورية العربية - أو التي من المفترض تعبيرها عن اختيارات الأغلبية - أنها إذا أصابت وأنجزت فذلك بفضل حكمة رأس الحكم، وإذا عجزت وفشلت فذلك بسبب قلة وعي الشعب، وعدم قدرته على مواكبة وطنية الزعيم ودأبه وحكمته!

وفي أحيان أخرى، حينما تتصارع أجنحة أجهزة الحكم في الدولة فينتصر الفرع الأضعف على الأصل المتحكم، يتم عزو الخراب إلى فشل الحكام السابقين المتحكمين. وبذلك تتوزع المكافآت لتصب في يد شخص واحد ودائرتة الضيقة، وتتبدد العقوبات على المجهول غالباً، أو يتم استخدامها لتصفية حسابات سياسية.

## أرسخ الديمقراطية

الديمقراطية لا تفرق بين الممالك والجمهوريات أبداً، فرغم أن "المملكة المتحدة" مملكة، فإن دعاة الديمقراطية والجمهورية ومنظريها حول العالم ظلوا لقرون - وما زالوا - ينظرون إليها بوصفها النموذج الأمثل لحكم الأغلبية، والتعبير الصادق عن إرادة الجماهير.

والمدهش أن تجد أن الكثير من النظم الوراثية الأوروبية كإسبانيا والسويد والنرويج والدنمارك وبلجيكا ولوكسمبورغ وغيرها، صارت هي الأخرى مضرباً للأمثال في حكم الأغلبية واحترام حقوق الإنسان. هذا في حين أن كثيراً من النظم الجمهورية في الغرب والشرق، لا سيما في وطننا العربي، صارت هي الأخرى مضرباً للأمثال في العالم أجمع، ولكن للقمع والاستبداد وحكم الأقلية.

وقد يستتفك البعض أن أضرب مثلاً بديمقراطية بريطانيا ويقول إنها كانت قوة استعمارية عالمية، وهذا صحيح جداً، بل ونزيد أنها ارتكبت من الجرائم في مستعمراتها ما يندى له الجبين، وهي المتسببة في مأساة الشعب الفلسطيني، وهي التي أسست النظم الجمهورية الخادعة في مستعمراتها السابقة .

لكنها مع ذلك كانت أكثر رحمة من الاستعمار الفرنسي، الذي من المفترض فيه أن يكون تعبيراً عن خيارات الجماهير وثورته الشهيرة التي حولت الحكم من دكتاتورية وراثية إلى دكتاتورية عسكرية متوحشة. ومع ذلك فالحديث هنا لا يدور أساساً حول سلوك هذه النظم خارجياً، ولكن حول سلوكها الداخلي مع شعوبها .

### العدالة هي الحل

كان من الممكن أن نستخلص أن النظام الجمهوري نظام فاشل لا يحقق العدالة ولا حكم الأغلبية، لولا أن مد الخط على استقامته يجعلنا نراه ناجحاً جداً في تركيا والولايات المتحدة وروسيا وألمانيا وإيطاليا وكندا وغيرها. كما أن التطبيق الصحيح لفكرة الجمهورية في هذه البلدان خلق حالة مثالية من العدالة، نراها نحن في بلادنا نواذر تستدعي الاندهاش، مع أننا نحن الأمة التي جعلها الله تعالى تأمر بالعدل والإحسان .

فقدان تلك العدالة في عالمنا العربي هو المشكلة الحقيقية، سواء في الممالك أو الجمهوريات، وبسبب غيابها تحول السجال السياسي الطبيعي الناجم عن اختلاف الآراء بين البشر إلى صراع دام، يأكل فيه القوي الضعيف، وتدفع البلاد بسببه الثمن فادحاً .

نخلص من تلك الفضفضة إلى أن النظام الجمهوري العربي هو في الواقع استبداد مقنّع، يعادي الجماهير، ويسومها سوء العذاب، ويحتال على الديمقراطية.

والواقع يشهد.

## فخاخ الديمقراطية العربية

26 يوليو 2019

تستخدم الديمقراطية ونظام حكم الأغلبية في كل بقاع العالم أسلوب إدارة يُستتبط منه رغبات الناس وتوجهاتهم في الطريقة المثلى التي يرونها لإدارة شؤون بلادهم، وقد رسخ في وجدان المجتمعات الغربية أنه لا بديل عن اللجوء للمسارات الديمقراطية، وإلا فإن البديل سيكون العودة لعصور الظلمات.

أما في المجتمعات العربية حيث تهيمن عليها النظم الاستبدادية، فإن للديمقراطية استخداماً آخر؛ ألا وهو اعتبارها مجسات لمعرفة مَنْ يؤيدون هذه البدعة وأعدادهم ومواطن قوتهم، ومن ثمّ الانقضاض عليهم وتغييبهم في سرايب السجون والمنافي، أو إبادتهم وإلباسهم رداء الخيانة، وإعطاء مَنْ يفكر بالطريقة نفسها درساً بليغاً بأنه يمضي على طريق الهلاك.

والمؤسف أن الغرب الذي آمن بفكرة الديمقراطية ومنتجاتها - والتي تسببت في كل نهضته الحالية - هو نفسه مَنْ يدعم مغتالي تلك الفكرة في الوطن العربي، ويحمي مَنْ يفجّرون بحار الدم في وطننا من أية هبات شعبية.

### مصائد عربية

في الجزائر، أُقيمت مصيدة الديمقراطية، وما إن وقع الصيد فيها حتى أُقيمت المقاصل ووقعت المجازر، وغرقت البلاد في الدم والظلام عشر سنوات سوداء. وحدث الأمر نفسه في لبنان إلى أن انتهت الديمقراطية هناك بمحاصلة طائفية مدعومة بما يشبه الوصاية الدولية لكل مكون من مكوناتها. وفي اليمن، انتهت فترة الديمقراطية القصيرة بحرب طائفية ثم حرب إقليمية وغزو خارجي مدعوم غريباً. وفي ليبيا، تكرر ما حدث في اليمن ولكن تم الغزو الأجنبي عبر وكيل محلي، أما المشهد السوداني فهو يسير بخطوات المشهد المصري نفسها وقد يكون له المآل نفسه.

ولقد علمتنا الحوادث أنه ما أن يتعرض النظام الاستبدادي لموجة من الانتقادات أو المطالبات الديمقراطية، حتى يسارع بالرد عليها بإعادة تصديرها في شكل صراع وطني أو قيمي، ويزداد هذا الطرح قوة وتكراراً وإحاحاً كلما ازدادت حدة تلك المطالبات وارتفع صداها واتجهت إلى طريق الحسم.

وتأتي المقارنة بين قيمتي "الأمن والحرية" أو "الاستقرار والحرية" كنموذجين أوليين من تلك الصراعات القيمية التي يتم التلويح بها إعلامياً، ويرافقها عادة تنفيذ عملي على الأرض عبر

وسائل الترويع المتعددة، والتي غالباً ما تكون في صورة غير رسمية؛ كي ترسخ بها هذه النظم أطروحاتها في الأذهان.

وتخشى هذه النظم أكثر ما تخشى من قيمتي "الحرية والعدالة"؛ نظراً لكونها راسبة رسوباً مدوياً فيهما، أقعدها مقاعد الاستبداد بجدارة فصار ذلك وسمّاً لا تُعرف إلا به.

كما تأتي أيضاً مقارنات تتميز بالإسفاف والابتذال في مقدمة ما تروج له وسائل إعلام النظم المستبدة وكأنها مسلمات عرفت بتلازمها؛ مثل الربط بين الصحة التي "يُمتعون" بها الفقير والمرض الذي يلاحق الغني، وكذلك السعادة التي يعيشها مَنْ لا مال له والثراء الذي لا يشعر صاحبه معه بالسعادة!

وتستمر مثل هذه النظم في طرح تلك "اللامنطقيات" متحاشية في الوقت ذاته التذكير بفضائل منطق قيمتي الحرية والعدالة، بل إنها كثيراً ما تتطرق لوصم الحرية بالفوضى والعدالة بسوء التقدير وإهدار الكفاءات، متجاهلة أن المرض في الغالب لا يصيب إلا الفقراء أما الأغنياء فيتغلبون عليه بأموالهم، والسعادة لا يشم ريحها الجائع.

## فشل عام

والواقع أن النظم المستبدة عادة ما تكون فاشلة في احترام كل القيم حتى تلك التي تقول إنها تنجح فيها بجدارة كالأمن؛ وذلك لأنه لا مفهوم للأمن لديها إلا الأمن السياسي، وما عدا ذلك من أمن فهو مجرد مكرمات تتكرم بها على الرعايا. وحتى مفهوم الأمن السياسي يقوم لديها على إفناء الآخر أو على الأقل إقصائه نهائياً بحجة أنه "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة"، وهي المعركة التي لا تكون لدى مثل تلك النظم إلا ضد الشعب نفسه في أغلب الأحيان.

والواقع أيضاً أن حجم الإسهامات في "خلطة" القيم يعد الفيصل الأول في تصنيف ديمقراطية النظم السياسية أو استبدادها؛ فقد لا يحقق نظام ما تطوراً في تداول السلطة ومع ذلك يصعب وصفه بالنظام الاستبدادي نظراً لكونه يحترم كل القيم الأخرى، لا سيما قيمتي "الحرية والعدل"، فضلاً عن حرية التفكير والاعتقاد، ويحقق لمواطنيه السعادة والأمن وغيرها. ولعله لا يكون مصادفة أن نعتبر نظاماً ملكياً كبريطانيا هو قلعة الديمقراطية في هذا العالم مع أنه لا يوجد به تداول كامل لقيمة السلطة نظراً لطبيعة نظام الحكم الوراثي الملكي فيها.

بينما هناك جمهوريات أخرى يدعي نظامها تداول السلطة ويسمح لمواطنيه بالحرية الشخصية، ومع ذلك يتصدر النظم الموغلة في الاستبداد حيث لا عدل ولا قانون ولا حرية سياسية وبالقطع لا سعادة، ولدينا جمهوريات أمريكا اللاتينية نموذجاً لمجتمعات أضعفت بالحرية الشخصية من دون السياسية وغابت عنها العدالة.

خلاصة القول: إن الأمم الحرة الراسخة تدوم بالديمقراطية، فيما تزول الدول المستبدة بإنكارها واستخدامها كفخاخ للخداع والتخبئة.

## الطرق الغربية في إدارة المستعمرات العربية

29 سبتمبر 2017

للسياسة الأمريكية والغربية عامة في وطننا العربي خطوط شبه موحدة لكنها دائمة وراسخة، تتمركز حول هدفٍ استراتيجي واحد؛ وهو إقصاء إرادة الشعوب عن المشاركة السياسية، ووأد أي نشاط يقود إلى مشاركتهم في تقرير مصير أوطانهم، وذلك عبر صناعة نخب وقوى ومراكز تحكم تابعة، ولا مانع أيضاً من قليلٍ من الوجود الاستعماري الفعلي المباشر، ولا من صناعة بدائل مزيفة لها.

### العلمنة والصهينة مقابل الحكم

واتبعت تلك القوى أنماطاً ذات خطوط عريضة في سبيل تحقيق هذه الإستراتيجية، يبرز أيٌّ منها بحسب طبيعة تطورات الحاجة في ميدان المعركة.

ولعل مسألة الدعوة إلى إقصاء الدين من حياة المسلمين العرب، أو الثورة الدينية، تأتي كرد فعلٍ غربي سريع على رغبة الشعوب العربية في الحكم وتقرير المصير عبر حراك الربيع العربي الذي تم وأده، ثم تلاه إرسال الغرب رسائله الضمنية للشعوب العربية التي تتضمن نقاطاً معيارية واضحة مفادها: "العلمنة مقابل المشاركة في الحكم".

ثم أُضيف إلى ذلك بند آخر يتضمن إنشاء قوة ردع لضمان تنفيذ البند الأول وعدم النكوص عنه، وهو "ريادة إسرائيل على كل المنطقة العربية"، وهو ما يفسر انطلاق دعوى السلام الدافئ، وصفقة القرن، والهرولة الجماعية لنظم التبعية العربية تجاه تل أبيب.

لكن هذه الرؤية أيضاً ما زالت ناقصة؛ لأنها تسبغ على بعض الحكام جانباً من الوطنية لا يستحقونه مهما كان ضئيلاً، وبعضاً من الإرادة مهما كانت هشة، على خلاف الحقيقة؛ لأن الحقيقة أن المشاركة السياسية التي قد تسمح بها النظم الغربية للشعوب العربية تلافياً لطول مقاومة شعوبها، تقتصر فقط على منحهم سلطة الوزارات غير السيادية، والتي لا يضيف السيطرة عليها أي رصيد للحراك الوطني المقاوم.

ويعني ذلك - ضمن أكثر ما يعني من أهمية - أن أمتنا العربية ما زالت رهن الاحتلال الأجنبي، وأن ما جرى في منتصف القرن الفائت من انقلابات أو "ثورات" - سمّها ما شئت - وحركات تحرر واستقلال وطني، كانت هي الأخرى مجرد نتائج لتطوير في الحيل الاستعمارية، تم من خلاله استبدال الاستعمار المباشر بالاستعمار بالوكالة.

## حظر الكتلة

من أهم مسلمات السياسة الغربية والأمريكية في وطننا العربي هو أنها تحظر - وبشكل صارم - على التيار الإسلامي بكافة تنوعاته الوصول للسلطة بأي شكل، وفي مرتبة أقل قليلاً من الصرامة يمتد الحظر ليشمل التيار القومي المناادي بالوحدة العربية؛ وذلك لكون الغرب يدرك أن العروبة هي التربة الخصبة التي تغذت عليها شجرة الإسلام، ثم في درجة أخيرة يصل الحظر ليطال التيار الاشتراكي الثوري لكونه يتضامن مع الفقراء ويقف مع حقوق الشعوب المظلومة كالشعب الفلسطيني في الاستقلال.

ويأتي الحظر المفروض على الكتل الثلاث في إطار سياسة أوسع من سياسة "حظر الكتلة"؛ فبقدر اتساع الكتلة السياسية لأية فئة وكثرة عدد أنصارها، تزداد قبضة الحظر السياسي عليها صرامة.

ومعنى ذلك أن الغرب يعتبر أن العربي أو المسلم المثالي هو ذلك الذي لا يعبر إلا عن نفسه ولا تعنيه إلا ذاته المفردة، وهو أيضاً ذلك الكائن الذي نُزعت منه روح العقل الجمعي والإحساس بدور الجماعة؛ وذلك لأسباب كثيرة جداً أهمها الاعتقاد بأن سبب صمود مجتمعاتنا ضد الذوبان سابقاً يعود لتلك الروح الجماعية، وأن الإسلام سيندر في النفوس لو بقي ديناً فردياً.

## منظومة زائفة متكاملة

ومن تلك المسلمات أيضاً أن أمريكا تقلد معظم الحكومات العربية الحكم، وتنصّب معها أيضاً معارضتها، وإن لم يقتنع الناس بهذه الثنائية. وفي حالة تنامي حالة التذمر والسخط الشعبي، وقيل أن تتمكن قوى المعارضة الحقيقية من الانتصار والوصول للحكم، تتدخل القوى الغربية لتنصّب المعارضة العميلة بديلاً عن المعارضة الوطنية صاحبة الحق كحكام جدد، مع أنها في الغالب تتدخل لنصرة النظام القديم إن كان هناك متسع لإخماد غضبة الشعب.

ولعل هذه الإستراتيجية - رغم أنها تجعل أمريكا وأوروبا المستفيد الوحيد من أية نتيجة للصراع في الحكم - فإنها أيضاً تعود عليها بمزيد من المكالمات والمكاسب، بسبب تنافس المتنافسين لنيل رضاها عما إذا ناصرت طرفاً واحداً من أطراف الصراع. فضلاً عن أن ذلك يخلق عملية ديمقراطية قد تخدع الشعبين العرب البسطاء، رغم أنها عملية ديكورية وتحت السيطرة الأمريكية.

وتكشف التحذيرات التي يرددها من حين لآخر أقطاب في دوائر حكم عربية عن عمق خشيتهم من هذه الإستراتيجية، والتي تلخصها مقولتهم: "المتغطي بأمريكا عريان"، مع أن تلك النظم في الأساس هي صنائع أمريكية وليس لها بدائل سوى ما تمنحه لها أمريكا من غطاء قد تسحبه منها متى شاءت.

هذه مجرد خطوط عريضة لبعض السياسات الغربية في وطننا العربي التي تبدت للعيان مؤخراً، ضمن سلة واسعة من السياسات شديدة العمق والاحتراز، جعلت من هذا الوطن لقمة سائغة في فم أعدائه، وجعلته هو ذاته ميداناً لمعركة، المنتصرُ والمهزوم فيها عربي.

ولكن لا ننسى أن الربيع العربي وحده يعود له الفضل في كشف تلك السياسات.

## "الاستبداد الديمقراطي" عند عصمت سيف الدولة

15 يناير 2022

في كتابه القيم (الاستبداد الديمقراطي)، قسّم المفكر القومي الراحل الدكتور عصمت سيف الدولة ظاهرة الاستبداد إلى ثلاثة أقسام متباينة: استبداد متخلف، واستبداد متحضر، واستبداد ديمقراطي"، تتفق جميعاً في النتيجة، في حين تختلف في الأشكال والأساليب والوسائل والمبررات.

ويستعرض في قسم الاستبداد المتخلف عدداً من نظريات الديمقراطية، خاصة نظرية (جورج بوردو) عن الديمقراطية "الحاكمة والمحكومة"؛ حيث توجد ديمقراطية فعلية "حاكمة" تعبّر عن شعب حقيقي وغايتها خلق عالم جديد متحرر، وديمقراطية "محكومة" تستوفي جميع أشكال الديمقراطية من انتخابات وحياء نيابية وحرية فردية وغيرها، ومع ذلك فإن قرارات السلطة الناجمة عنها لا تعبّر عن إرادة الشعب الحقيقي، وتكمن غايتها في تسكين المجتمع لا نهضته.

ويرى أن الديمقراطية المحكومة هي في الواقع "استبداد متحضر"؛ فهذا - مثلاً - نظام ديمقراطي كامل شكلياً، يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه، لكن كل ما في الأمر أنه "شعب زائف لا يعبر عن الشعب الحقيقي". وأهم ما يميز هذا النوع من الاستبداد أنه لا يستدعي شعارات الاستبداد ومبرراته القديمة، بل يضيف عليها صفة الخضوع لإرادة المجتمع.

### حلم بعيد المنال

والمؤسف حقاً أن الانتقال من الاستبداد المتخلف إلى الاستبداد المتحضر لا يزال حلماً بعيد المنال لدى شعوبنا التي ما زالت ترزح تحت نير الاستبداد المتخلف.

ويكشف سيف الدولة أن اتجاهاً يسود لدى المفكرين الغربيين ينكر صحة التاريخ الديمقراطي الذي يتباهى به الغرب، لا سيما أمام حقيقة أن الحرية والمساواة بين الناس لم تكن موجودة أصلاً في الحضارتين الإغريقية واليونانية، ولا شك أن غياب المساواة بين الناس يهدم بديهيات الديمقراطية.

وللتدليل على ذلك، يستدعي رؤية أعظم مفكري هذا التاريخ (أرسطو) القائلة بأن كل إنسان ليس مواطناً، وأن الطبيعة خلقت رجالاً ليحكموا وآخرين ليطيعوا، وأنها جعلت من حق العقلاء والحكماء أن يكونوا سادة، وأن يكون القادرون جثمانياً على تنفيذ ما يصدر من أوامر عبيداً.

ويؤكد سيف الدولة أن من البديهيات التي ينكرها المستبدون "تعدد" الأفراد في المجتمع "الواحد"، وهو ما ينتج عنه تناقض محتوم بسبب اختلاف الاحتياجات الفردية من شخص إلى آخر، فيلجؤون إلى ممارسة عمليات الإلغاء؛ فإما إلغاء التعدد، أو إلغاء المجتمع، أو إلغاء

الاحتياجات. وقد يلجأ المستبد المتمكن إلى إلغائها جميعاً بحجة أنه "إله" أو يملك الحق الإلهي، أو أنه "رب الأسرة" والأكثر دراية بمصالحها، كما هو الحال في الاستبداد المتخلف، أو الإيهام باحترامها مع عدم تمثيلها تمثيلاً صادقاً، كما في الاستبداد المتحضر.

ويعزو سيف الدولة جنوح المستبد إلى الاستبداد بأنه العودة إلى مرحلة الطفولة، وخلالها تبرز ظاهرة النزوع إلى التدمير كما يفعل الطفل حينما يفتقد مصدر اللذة. وبالتالي، فإن قرارات السلطة الديمقراطية الحقة - هنا - لا بد أن تكون خاضعة لرأي أغلبية المجتمع، حتى لو كان رأياً مشكوكاً في صوابه.

### الاستبداد الديمقراطي

فرّق سيف الدولة بين الاستبداد البرجوازي والاستبداد الديمقراطي، ورأى أن أسلوب البرجوازية في استبدادها - أو على الأصح في تغطية استبدادها - هو اللجوء إلى نظام التمثيل النيابي، في حين لم يتم التسليم بأن التمثيل النيابي أسلوب ديمقراطي خالص.

وعلى النقيض تماماً، يرى سيف الدولة أن الاستفتاء الشعبي هو أصل الديمقراطية ولا يعترض عليه إلا المستبدون، وهذه الميزة تجعله صالحاً ليكون ستاراً عسرياً مروعاً - ولا نقول رائعاً - للاستبداد؛ لأن من يعارض هذا الأسلوب هنا سيكون كمن يعارض الديمقراطية ذاتها.

ولما كانت مخالفة الدستور - في ذاتها - استبداداً محرّماً، فإن كل استفتاء شعبي يخالف الدستور هو ستار ديمقراطي للاستبداد، أو كما نسمّيه "استبداداً ديمقراطياً"، إلا الاستفتاء على الدستور وتعديلاته. وفي المقابل، يكون الاستفتاء الممكن "دستورياً" غطاءً للاستبداد حينما يكون مستحيلاً موضوعياً، بمعنى أنه يستثني فئات من المجتمع بسبب عدم قدرتها على الاختيار الصحيح لصغر السن وعدم التمكن من الإدراك.

ويعتقد سيف الدولة أن الفارق الدقيق بين الاستفتاء الشعبي الذي يعبر عن إرادة الشعب، والاستفتاء الشعبي الذي يغطي على قبح الاستبداد، هو أن ينحصر الاختيار بين "نعم" و"لا" في حين أن الموضوع المستفتى عليه يتطلب أسئلة غير ذلك.

ورغم إيمانه بأن الاستفتاء الشعبي هو أبرز دليل على الديمقراطية، فإن سيف الدولة راح يستعرض عشرات الأساليب والنماذج التي اتبعتها المستبدون المصريون، فحوّلوا هذا المظهر الديمقراطي إلى محفل استبدادي يغيّر طبيعته تماماً.

ويرى سيف الدولة أن المنظمات التي سُمّيت "أحزاباً" في فترة الثمانينيات والتسعينيات، جاءت صراحة وعلناً وقطعاً نتيجة قرار منفرد تمت صياغته خارج نطاق الدستور وبالمخالفة لأحكامه الأساسية، ولم يهتم أحد حتى بالتظاهر باحترام الدستور، بل اهتم أصحاب القرار والمنفعون منه بإقامة "المظاهرات الفكرية ترحيباً بالأحزاب الوليدة سفاهاً".

ثم بدأت السلطات البحث عن طريقة التحوط ضد المسؤولية بإسناد القرار إلى الإرادة الشعبية أو إشراك الشعب في خرق الدستور عن طريق الاستفتاء الشعبي، فأقحم قرار إنشاء الأحزاب في كل الاستفتاءات التي حدثت بعد ذلك.

.....

هذه كانت مجرد قشور لمحتوى كتاب مهم، لكاتب كبير، يُعد واحداً من أهم الكتب العربية التي تحدثت عن فلسفة الاستبداد، وتناولته بشيء من التأطير والتنظير.

# الفهرس

1 - مقدمة..... 1

## الفصل الأول قضايا ثقافية

- 2- نجو تأريخ منطقي لمصر ..... 4
- 3- تداعيات الانتقال من الوفرة إلى الندرة..... 8
- 4- هؤلاء سبقوا شامبليون في فك رموز الهيروغليفية ..... 11
- 5- عن المثقف والمثقفين ..... 14
- 6- الثقافة اليهودية عند المصريين ..... 16
- 7- غرائب بوتقة الصهر ..... 18
- 8- بذريعة الاقتباس والتمصير..... 21
- 9- الفروق الجوهرية بين الثورة والانقلاب ..... 23

## الفصل الثاني العروبة والعربية والإسلام

- 1- الهجوم على صلاح الدين جزء متقدم من الحرب على الإسلام..... 27
- 2- البعض يخوضونها حربا على الإسلام ..... 29
- 3- الزواج الحرام .. العلمانية والقومية العربية..... 35
- 4- نقاط العرب وأصفارهم ..... 38
- 5- التيار القومي تحت الحصار..... 40
- 6- لا أحمس جدي ولا نفرتيتي جدي..... 42
- 7- التمصير والتعريب .. وجهان لعملة واحدة ..... 45
- 8- ليتها معركة حول هوية كليوباترا..... 48
- 9- ما الذي يضير ساويرس من مصر العربية ..... 51

- 10- لغتنا القومية التشخيص والعلاج ..... 54
- 11- العربية أهانها الأعراب وأكرمها الأعراب ..... 58
- 12- لماذا نهدر تميزنا ونافس على الذيل ..... 61
- 13- الاعتداء على الهوية الثقافية ..... 64
- 14- مأساة العربية في موطنها ..... 67
- 15- إهدار العربية جزء متقدم من الحرب على الإسلام ..... 70
- 16- الطرق الشعبية للدفاع عن العربية ..... 73

### الفصل الثالث: مربط الفرس التعليم والدراما

- 1- عن التعليم وسياسة التقليل ..... 77
- 2- لماذا تفشل المنظومة التعليمية في مصر ..... 80
- 3- حول مأساة التعليم في مصر ..... 83
- 4- دراما برائحة المؤامرة ..... 86
- 5- حينما تكون الدراما هدفا قوميا ..... 89
- 6- في هذا نجحت الدراما التركية ..... 91
- 7- الدراما الإيرانية.. دراما الأسرة والمجتمع ..... 94

### الفصل الرابع: حول الاستبداد والديمقراطية

- 1- في بيتنا نقاش ..... 98
- 2- الافرازات الضارة للديمقراطية ..... 101
- 3- فضفضة جول الفشل الجمهوري العربي ..... 104

- 4-فخاخ الديمقراطية العربية -.....106
- 5-الطرق الغربية في إدارة المستعمرات العربية .....109
- 5- الاستبداد الديمقراطي عند عصمت سيف الدولة .....112